ضعف الشعر في صدر الإسلام حقيقة أم وهم...

((دراسة في قضية الإسلام والشعر))

المدرس المساعد

حامد سرمك حسن

جامعة القادسية / كلية الآداب

ضعف الشعر في صدر الإسلام حقيقة أم وهم... ((دراسة في قضية الإسلام والشعر))

المدرس المساعد

حامد سرمك حسن

جامعة القادسية / كلية الآداب

مشكلة البحث:

إن مسالة ضعف الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام من المسائل الدقيقة والخطيرة التي يقف أمامها الباحث الحاذق منذهلا، حيث لا يجد لهذه الظاهرة تعليلا مقنعا وفقا لما يقتضيه المنطق العلمي السليم، وقادرا في الوقت نفسه، على الصمود والثبات أمام النقد الحقيقي الصادق.

من جهة أخرى فقد درج معظم الباحثين على تناول هذه القضية، قضية الشعر الإسلامي في صدر الإسلام، من زاوية ضعف ذلك الشعر من منطلق ((أن الدين يقلم أظفار الشاعر، وان الشعر الذي يستحيل "خطبة منبرية" كشعر حسان بن ثابت لا يمكن أن يرضينا أبدا))[1]، وكأن هذا الضعف أمر محتم غير قابل للمعارضة فضلا عن النقاش. فما زال كثير من الباحثين يوجهون أبحاثهم وجهودهم لإيجاد تعليل منطقي لذلك الضعف، ولم يجرؤ احد إلا القليل ـ إن وجد ـ على مخالفة ذلك الرأي، والقول ،مثلا، إن الشعر لم يضعف في صدر الإسلام ناهيك عن القول بقوته في تلك الفترة.

ونذهب إلى أن التسليم بضعف الشعر من معظم الباحثين قد يشي بشيء من توخي الراحة وانعدام النية في البحث الجدي الرصين لغرض إظهار الحق ونصرته وعدم الانجراف، بسهولة، وراء بعض الأقوال المأثورة والمشهورة لمعظم النقاد القدامى والمحدثين المعروفين فضلا عن المستشرقين. وكأنهم قد استروحوا النوم في ظل الخرائب الواهية التي انبنت على تراب تلك الآراء، وآثروا الانزواء عند تلك الظلال ورطوبتها المهلكة خوفا من حرارة الشمس اللافحة التي يخشاها أغلب الذين ولجوا هذا الميدان. إن ما نذهب إليه يرتكز إلى حقيقة ناصعة تتمثل في عدم صلاحية جميع ما وضع من الأسباب المعللة لضعف الشعر الإسلامي. فلم ينبر من أولئك الباحثين من يكشف مصداقية الأفكار النقدية المفسرة لحالة الشعر آنذاك بل اكتفوا بترديد ما تواضع عليه من سبقهم من النقاد والمؤرخين وكأن أقوالهم لها من القدسية ما يجعلها فوق النقد وخارج إطار الضروري من الشك المنهجي السليم.

بسط القضية:

بدءا، تترسب بعض المقولات المأثورة في ذلك التأويل حجرا صلدا ثقيلا في أعماق ادراكاتنا لهذا الأمر (ضعف الشعر في الإسلام). ومن ثم تعمل تلك المأثورات

عمل المرساة مع السفينة فتبقينا ثابتين في تلك البقعة، بقعة ضعف الشعر، لا نبرح عنها أبدا. فقد شاعت مقولة (أثر الإسلام في ضعف الشعر) شيوعا قربها من البديهيات لكثرة ما ترددت في أقوال القدامى والمحدثين ((حتى بلغت مبلغ العقيدة الراسخة التي لا تكاد تقدر على نقضها أية حقيقة أخرى مهما كانت شواهدها وأدلتها)) [٢]. وكان أن تمخضت عنها نتائج خطيرة تتصل بموقف الإسلام من الجمال والفنون عامة، وبالأخص ما ذاع في أقوال المستشرقين وما جاءوا به من أسباب لتأييد مزاعمهم نستشف منها الخطأ في تفسير النصوص الدينية وتحميلها من المعاني ما لا تتطرق إليه.

ومن هؤلاء المستشرقين الأستاذ "جب"[٣] الذي يرى أن الإسلام والرسول الذي كان له شاعره الخاص به "حسان بن ثابت" قد وقفا منذ البداية موقفا معاديا للفن الشعري، لان هذا الشعر كان سجلا للقيم والمثل الجاهلية التي جاء الإسلام للقضاء عليها. ومن هنا، فيما يرى"جب" نبعت هذه الحقيقة التي تصدمنا، وهي ان ظهور الإسلام لم يخلق شاعرا واحدا في امة الشعراء أو ان تسجيل الشعر الإسلامي لأمجاد الإسلام بالقياس إلى أمجاد الماضي في الشعر الجاهلي، لا يتعدى قصيدة واحدة، هي قصيدة "كعب بن زهير" (بانت سعاد). وحتى هؤلاء الشعراء المعروفون الذين كانت لهم مكانتهم الشعرية في الماضي، قد امسكوا عن قول الشعر، فلا يعرف مثلا، شعر إسلامي لـ "لبيد"، ذلك الشعر العظيم الذي كان شعره، كما تصوره ملعقته المعروفه، من خير أشعار الجاهلية جميعا، على الرغم من انه عاش بعد إسلامه ما يقرب من ثلاثين عاما...

يكاد يتوافق معظم الباحثين من قدماء ومحدثين في إسناد مذهبهم القائل بضعف الشعر الإسلامي إلى الآية الكريمة التي تقول: ﴿ وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [٤].

وتناقلوا كذلك حديث المصطفى(ﷺ): ((لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه، خير له من أن يمتلىء شعرا))[٥]. ونسمعهم يرددون مقولة الأصمعي: إن الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل في الخير لانَ[٦]. ويؤكدون مقولة الضعف هذه، بان شعر حسان بن ثابت ضعف ولان في الإسلام، بينما هو في الجاهلية من الفحول، إلى جانب انصراف الشعراء عن قول الشعر، أمثال لبيد بن ربيعة [٧].

ونستطيع أن نرد هذه الأسباب التي يعلل بها القدماء ضعف الشعر الإسلامي إلى ثلاثة أسباب رئيسة تمثلت في نصوص لبعض الأعلام العرب (الأصمعي، ابن سلام، ابن خلدون) خرجت منها الأسباب الأخرى، وهي: أن الإسلام قد شغل العرب، منذ ظهوره، بالنبوة والوحي، وبالحروب والفتوحات، مما دعا أكثر الشعراء إلى الانصراف عن الشعر. وان تغير القيم الجاهلية إلى قيم إسلامية، وسمو النص القرآني

وارتفاع مستواه الفني، قد ترك في نفس الشاعر القديم آثارا حادة من الحيرة بين قيمه القديمة وتعاليم دينه الجديد، بحيث انتهت به هذه الحيرة الفنية والدينية إلى جمود عاطفي وفني تجلت آثاره البعيدة في هذه الأشعار المبتذلة من شعر حسان بن ثابت وغيره من شعراء المسلمين، كما تمثلها النصوص الكثيرة التي دونها ابن إسحاق في كتابه عن (سيرة الرسول). ويتلخص السبب الثالث فيما ذهب إليه "ابن سلام" من كثرة الوضع والتزييف في رواية الشعر الجاهلي والإسلامي، واثر هما فيما أصاب نصوص هذا الشعر من ضعف واضطراب وابتذال[٨].

إن إحدى تلك الأحجار الكبيرة ما ينقل عن "الاصمعي" قوله: ((وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة، من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار، فإذا أدخلته في باب الخير لان))[٩]. ويذهب "إحسان عباس" في تعليقه على هذا القول بان الشعر عند الأصمعي مجاله الشر وإذا تناول الموضوعات الأخلاقية والدينية (الخير) ضعف وتهافت؟.. ثم نسمع من يحاول القول في الزهديات والربانيات والنبويات يسقط سقوطا ذريعا، ويعلل ذلك بسبب ابتذال معانيها بين الناس[١٠].

هذه الأقوال والآراء قد طبعت أذهاننا وأبحاثنا بتصورات مسبقة مشروطة بضعف ذلك الشعر، فأضحت قوانين ملزمة وان كانت أعرافا لم يدركها التدوين بعد. لكنها تتمتع بدور تسلطي لا تفتا تمارسه على أفكارنا التي تترجرج بين جوانحنا وما يجب أن نتحصن به من روح نقدية من خلال سلاح الكف والمنع الذي توحي به وتشهره على عقولنا حيثما حاولت الانعتاق من ربقة التقليد المزري او ان تتخذ لها مواقع جديدة بزوايا نظر مغايرة إلا ما حددته لنا تلك الأعراف من مواقع للجلوس أو النظر. فسلبتنا حرية الابتكار وإمكانية التنويع أو المعارضة الأصيلة المشفوعة بالأدلة والبراهين. فمن جهة منهجية إطلاق الأحكام في الإسلام ومنها الحكم الجمالي، ومدى أرجحية المعايير الإسلامية؛ فمن الضروري التبصر بالآلية التي وضعها الإسلام لهذه القضية، وهي في مجملها تتمحور حول مفهومي الثابت والمتغير في الفكر الإسلامي. ويعلق د. محمود البستاني على هذا الأمر قائلا: إن هناك مبادىء واضحة تكوّن الخطوط العامة لذلك، إلى جانب الأخرى المفتوحة للإنسان والزمان والمكان تركها الإسلام بما يتناسب مع كل جيل وطبيعته وتركيبته الثقافية والمعرفية ومستواه، مضافا أن البارىء (عز وجل) ألهم بني الإنسان معرفة الخير والشر فطريا بما يستطيعون به أن يظفروا بالصواب في مختلف أدوار الحياة ويهتدوا إلى الحقيقة نسبيا، لكنهم ما زالوا محتاجين إلى اقتران ذلك باليقين في الوصول إلى مطلق الحقيقة الذي هو وحي الله تعالى النازل على رسوله في مبادىء الشرع الحنيف. لذلك تبقى المعايير الإسلامية هي الفيصل في الحقائق؛ لان العلم لدينا منذ ولد حتى الآن يخضع لظاهرتين هما التطور والاختلاف في وجهات النظر وهذا يعني عدم إمكانية الركون مطلقا إلى أي

يقين علمي.

إن هكذا قضية لها انعكاسات مؤثرة وصدى فاعلا في لا شعور الإنسان عامة، والمسلم بصفة خاصة، تتمحور حول موقف الإسلام من الفن والجمال، فتوحي بان ثمة نظرة سلبية يحملها الإسلام تجاه هذا النشاط الإنساني الحيوي الضروري، ليس من الجهة الشرعية، بل ليس في الإسلام ما يغني هذه الفنون، ومنها الشعر، بل إن الالتزام بالدين والتدين سبب لهبوط الشعر ولغته، وهذا له اصل في ذلك التوجس المتعلق بناصية المسلم من كل أمر جمالي مستجد، فنجد النفور الساذج من قبل الكثير، والبقاء على الدوران خارج الحلبة وخارج الحلقة، وعدم وضوح التجربة وانعدام التجلي والكشف.

طبيعة التصور الإسلامي للأدب:

لا مناص،هنا، من إلقاء بعض الضوء على ما موجود من روابط وصلات تاريخية بين الشعر والدين من حيث المفهوم والنشأة. إن الصلة بين الشعر والدين صلة قوية وقديمة قدم الشعر والدين نفسيهما، وهو ما حمل الرومان على أن يطلقوا على الشاعر والنبي كلمة واحدة هي (فاتيس)[١١]. وقد كان الكهان، وهم أقدم الأدباء، ينظمون الأناشيد الدينية وأناشيد الحروب والمقطوعات التي تصور العقائد الدينية أو تحث على العبادات، يصورون كل ذلك شعرا حتى يسهل حفظه أو التغني به، فضلا عما يحققه هذا النظم لتلك الأناشيد والمقطوعات من قوة مؤكدة للتأثير في وجدان المتلقي وعقله[١٢]. لقد استطاع الشعر، بما لديه من مكانة قوية، ان يخدم الدين في ظروف كثيرة ويمكّن له بنشر أهدافه والدفاع عنه، كما استطاع الدين أن يمد الشعر بموضوعات جليلة وان يلونه في كثير من الأحيان بألوان دينية مختلفة[١٣].

ولم يكن الشعر والإسلام ليخرجا عن هذه القاعدة، أي الصلة الحميمة بين الشعر والدين. لكن هذا لا يمنع من وجود خصوصية واضحة في أصل البنية العقائدية والأخلاقية للدين الإسلامي استطاعت أن تنحوَ بهذه العلاقة منحى خاصا خصوصية المبادىء والقيم الإسلامية، وهو منحى يمكن تجليته ضمن مفهومي الغاية والوسيلة. فالتصور الإسلامي ينظر للفنون الجمالية عموما والأدب على وجه الخصوص على أنها (أدوات جمالية) تستنبطن هدفا فكريا لا ينفصل عنها، وهو ما يتقاطع مع الاتجاهات الأرضية المنعزلة عن قيم السماء في تصوراتها المتفاوتة حيال هذا الأمر، من حيث عدّها (هدفا) بحد ذاته، أو مجرد (أداة) للمعرفة، أو وهما..الخ.

فالإسلام يرى في الأدب لغة جمالية تبقى في نطاق الأداة التي لها أهميتها في توصيل مبادىء وقيم السماء. وهو في هذا المفهوم يتعارض مع الاتجاهات القائلة بـ(أدبية الأدب) وانتفاء القصدية، وأن الأدب (هدف بذاته)، ومتوافقا مع الاتجاهات (الملتزمة) التي تؤكد (وسيليته) فحسب، وهو أيضا مغاير بطبيعته للاتجاهات الملتزمة بكونه يمتلك مبادئه الخاصة (وهي مبادىء السماء)، مما يترتب على ذلك تقاطعه مع

التصورات الأرضية جميعا من حيث نمط المبادىء من جانب، وانعكاسات ذلك عل (اللغة الجمالية) من جانب آخر[١٤].

من خلال تقصي الأسباب التي وضعها النقاد لتعليل ضعف الشعر الإسلامي(في صدر الإسلام) لم نجد من تلك الأسباب ما يبرر ذلك الضعف أو بالأحرى لم نجد منها ما يوضح ويفسر كينونة الشعر في ذلك العصر وعلاقته التبادلية وحالة التثاقف بينه وبين النظام الجديد والفلسفة الجديدة (الدين الإسلامي).

إن فهم حالة التثاقف ،آنذاك، بين الشعر والإسلام، بشكلها الواقعي والصحيح لا تتم من دون إدراك المهيمنات المحددة للسلوك العام في تلك الفترة، والتي تختص، بالدرجة الأساس، بعقيدة التوحيد التي رفع رايتها نبي الرحمة محمد بن عبد الله(ﷺ)، وما ينبثق عنها من فواعل تتلون بها السلوكيات الحياتية والمؤسسات الاجتماعية بمختلف أنواعها (الدينية، الاجتماعية، السياسية، التربوية، الاقتصادية، الثقافية) ومنها النشاطات الجمالية المتمثلة آنذاك بشكل مركز في الأدب وخصوصا الشعر النوع الأدبي الأكثر شيوعا ورسوخا وتأثيرا في الذائقة الجمالية والمعرفية للإنسان العربي في ذلك الحين.

لقد كان للعرب قيمهم التي هي محددات للسلوك في مختلف تفرعاته، ولم يكن ثمة احتمال ولو ضئيل أن يشذ الشعر عن هذا الإطار.فهو في شكله ومضمونه يجب أن يفهم من خلال بيئته التي اشتغل وفقا لشروطها. وإذا نظرنا للشعر وفق المنظور الإسلامي بأنه أداة جمالية تسهم مع أدوات أخر في إشاعة المفاهيم الإسلامية الجديدة وترسيخها في نفوس وعقول أبناء المجتمع، فان العملية الشعرية ستكون نوعا من الممارسات التربوية الهادفة لها أساليبها وغاياتها بما يتواءم مع أهداف التربية الإسلامية في عصر الرسالة المحمدية، وليس بالضرورة أن تكون تلك الأهداف أو الأساليب صالحة لعصرنا هذا لنحكم عليها بالخواء فيما إذا جُرّدت من اشتراطاتها الراهنية في تلك الحقبة.

إن الأهداف التي تتوخاها أي امة من الأمم، سواء على مستوى الحياة قاطبة او التربية على وجه الخصوص، لا بد أن تتشابه أو تتشارك في خطوطها العريضة مع الأهداف التربوية للأمم الأخرى من جهة تحقيق أسباب الحضارة والعمران والتقدم، وهو في الوقت نفسه، لا يمنع أن تكون للتربية العربية الإسلامية خصوصيتها التي تميزها عن الأمم الأخرى، لان التجسد المحسوس أي الواقعي والعملي للمفاهيم التربوية لا بد أن يتشكل ويتلون وفقا للاشتراطات الحضارية لكل امة على حدة. من هنا نستطيع تلمس الفوارق في أهدافها ووسائلها، ومنها الشعر، بسبب اختلافات المهيمنات الفاعلة في ساحتها. لذلك فان الشعر، شكلا ومضمونان بوصفه جزء من العملية التربوية في صدر الإسلام لا يمكن أن ينفصل، سواء في أساليبه أو أهدافه التي يتوخاها، عن أهداف العرب المسلمين في صدر الإسلام (الدينية، الأخلاقية، السياسية، الاقتصادية، العسكرية) ولا يستطيع إلا أن يخدمها[١٥].

إن جزءا من مكونات الصورة التي رسمها النقاد والمختصون المحدثون القائلة بضعف الشعر الإسلامي آنذاك (في عصر الوحي المحمدي) قد تكون وليدة الاعتقاد بعدم صلاحية ذلك الشعر لذائقتنا الراهنة جماليا وحضاريا، وهو سبب فيه نظر كبير وكأنه وُلد بشرخ خطير في مصداقيته. لان مفهوم الأدب الإسلامي لا يعني ((أن نتمثل نصا شعريا قديما ونعيد صياغة شكله ومضمونه أو النسج على منواله متجاهلين هذه الخصوصيات المعرفية الحاضرة، كما ان النتاج الأدبي القديم نفسه كان معانقا لحاضره بقوة ووعي، إذ الأدب الأموي والعباسي كانا يختلفان عن الأدب الجاهلي بل حتى عن أدب فجر الإسلام))[١٦]. وهي فكرة تصلح لإبطال فكرة المقارنة الاعتباطية بين شعري عصرين مختلفين في الموقف والزمان.

لقد كانت نظرية الشعر الإسلامي مرتبطة بمحيطه الإسلامي وواقعه الثقافي آنذاك، وما استجدت فيه من مهيمنات وفواعل (مفاهيمية، وقيمية) لها سطوتها على النشاطات الحياتية عموما ومنها الشعر، فأسهمت في تحديد مسارات تلك النظرية (شكلا ومضمونا). لان الأدب ((يرتبط بنيويا بالجمال ومدى انفعال التركيبة النفسية والذوقية للمتلقي بما يبعثه من صور وأفكار ودلالات وإشارات، ومدى تأثير الرؤية النقدية في إضاءة النص واكتشاف نقاط الضعف والقوة والإبداع التي يختزنها في سياقه العام وشفرته الخاصة))[١٧].

لقد أحدث الإسلام بقدومه ثورة جذرية شملت هيكلية المجتمع العربي آنذاك، فكان ثمة تغييرات عميقة في بنية ذلك المجتمع عقائديا ومعرفيا وقيميا، أي تحقق نوع من الانقلاب في منظومة القيم التي كانت متحكمة في سلوكيات ونشاطات الإنسان الجاهلي، ومنها الشعر، بفعل الإسلام الذي ((بدل المفاهيم الجاهلية، وألغى كل مفهوم لا ينضوي تحت لواء الإيمان، ولا يتماشى مع تعاليم الإسلام، وأجاز المفاهيم القيمة التي تشكل دائرة مكارم الأخلاق، واستمر الشعر بعد ان تهذَّب الشعراء، وتشربوا ماء الإسلام، وأدرك كثير منهم انه ليكون مرضيا عن شعره، متمشيا مع دينه، عليه أن يلتزم بكل مظاهر الخير، وان يتقيد بكل تعاليم الإسلام))[١٨].

من المسلم به أن الأدب ابن بيئته، والناطق الأصيل عن تطلعات وآمال وهموم الإنسانية عموما وأبناء جلدته التي يحيى بين ظهرانيهم على وجه الخصوص. وهو قادر، إن توافر للأديب وعيا جماليا متميزا وبعدا معرفيا يستند إلى خبرة فنية ودراية معتبرة باشتراطات الشكل الجمالي، على خلق نموذج من عالم خاص من صنع المخيلة الخلاقة، أعمدته الصورة والمجاز يتجاور فيه الجزئي والكلي، الواقع والمثال، إن الأدب هو المرآة التي تعكس التجربة الإنسانية بعمق وجمالية متفردة تميّزة عن سائر الفعاليات الثقافية، ومن الميسَّر علينا تصور محورية دوره في الحياة في إضاءة الجانب الجمالي للفكر الإسلامي الصحيح وحيوية مشاركته في إرساء رؤيته الحقة عن الكون والحياة والإنسان[١٩].

لقد أسهمت أحقية المبادىء الإسلامية من جهة كونها حلولا لمشكلات المجتمع

العربي مع ما يكنه المسلمون من إيمان صلب بهذا الدين الجديد، إلى تسيد المفاهيم الإسلامية على الساحة آنذاك، لما حازته من قبول صادق ومطمئن من لدن الإنسان العربي حين وجدها السبيل الوحيد لانتشاله من ظلمات الجهل والشرك، وتحريره من ربق عبودية الهوى والأعراف البالية المدمرة لأسس المنطق والعقل، تلك الأعراف والقيم والمفاهيم التي لم ينزل الله بها من سلطان. لقد أضحى الإسلام، وبسرعة هائلة، هو الثابت الأكبر، إن لم يكن الوحيد، في حياة المسلمين وكل شيء آخر في الحياة متغير وتابع له.

هكذا كان الشعر احد تلك المتغيرات التي عملت جاهدة على مواكبة هذا التطور الحياتي الهائل، فعمدت إلى التغيير الثوري في أساليبها ومضامينها لتتمكن من مواكبة تلك التغيرات وليكون لها مبررا للعيش والازدهار وسط هذه البيئة الجديدة التي لا يمكن لها أن تقبل بأي شيء إلا وفق اشتراطات الدين الجديد. فكان ان بدأت براعم الشعر الجديد تستنبت في تربة الإسلام الخالد لتنهل من خيراته وتتشرب تدريجيا بمفاهيمه وقيمه وأبعاده العقائدية والمعرفية والخلقية، وأخذت تنمو وتزدهر رويداً رويدا.

فهي وان كانت في بدء نموها غضة ضعيفة إلا ان عودها آخذ في الصلابة والتطور تبعا لسنة الحياة ونواميس التطور التي أودعها الله تعالى سرائر مخلوقاته. وفقا لهذا التصور، ولان الإسلام دين خالد ومبدعه منزه مطلق لا يعتريه التأثر من شيء، فان المنهج الأولى في دراسة قضية الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام، هو في معرفة ما تأثر به الشعر من الإسلام، إن كان ذلك الشعر قد ضعف وتراجع في تلك الفترة أم انه لم يكن له أن يكون إلا كذلك. حتى انه يمكننا القول، بخصوص حالة الشعر الإسلامي خلال فترة الوحي المحمدي، باطمئنان ويقين: أنه لم يكن في الامكان أحسن مما كان.

موقف الإسلام أم المسلمين؛ ضرورة تحديد المدة الزمنية:

من الضرورة بمكان التأكيد على أهمية التحديد الدقيق للمساحة الزمنية المقصودة بالعصر الاسلامي الذي نتناول فيه ضعف الشعر الإسلامي من عدمه. فالمقصد الأساس استكناه هذه الواقعة من جهة موقف الإسلام المحمدي الأصيل من الفن عامة والشعر خاصة وليس موقف المسلمين. لذا يستلزم معالجة القضية وفقا لسياقات واشتغالات المبادىء والمفاهيم الإسلامية المحضة كما جسدها على الأرض النبي محمد(ﷺ) قبل التغيير الذي ادخله المسلمون فيما بعد بفعل العوامل السياسية والتطورات الاجتماعية التي ترجمت بصورة أكيدة في المحاولات التفسيرية والتاويلية والأحاديث الموضوعة والروايات المختلقة والخرافات المدسوسة.

يرى أحمد حسن الزيات في تاريخه[٢٠]: أن التاريخ الأدبي وثيق الصلة بالتاريخ السياسي والاجتماعي لكل امة، بل ان كليهما لازم للآخر مؤثر فيه ممهد له.

غير أن الأول إنما يسبق الثاني كما تسبق الفكرة العمل والرأي العزيمة: فكل ثورة سياسية أو نهضة اجتماعية إنما تعدها وتمدها ثورة فكرية تظهر أولا على السنة الشعراء وأقلام العلماء لقوة الحس فيهم، وصفاء النفس منهم؛ ثم ينتقل تأثرهم وتطورهم إلى سائر الناس بالخطابة والكتابة فتكون الثورة أو النهضة.

لقد كانت ثمة عدة اتجاهات توزع عليها دارسوا الأدب والمؤرخون في (تحقيب) التاريخ الإسلامي في تقسيمات زمنية محددة استند كل منها إلى فهم خاص للمراحل التي مر بها ذلك التاريخ.

فمنهم من يرى أن العصر الإسلامي يبدأ بظهور الرسول(ﷺ) إلى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ - ٧٥٠م، وهو العصر الذي استكملت فيه الدولة الإسلامية الفتوح، وتم لها الاستقرار. وبعض المؤرخين يجعل هذا العصر قسمين: القسم الأول: عصر صدر الإسلام، وهو يمتد إلى نهاية خلافة الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام). والقسم الثاني، يبدأ بحكم معاوية وينتهي بسقوط الدولة الأموية.أما القسم الأول: وهو الفترة الزمنية التي تبدأ بظهور الإسلام وتنتهي بقيام الدولة الأموية.فقد أتم الله نوره،وانتشر الإسلام وعم أطباق الأرض،وقد استلهمه الشعراء في أشعارهم،ومضوا على هدى من القران يرسمون وينشئون [٢١].

نلاحظ أن التقسيم المذكور أعلاه قد اعتمد عوامل تاريخية أو جغرافية أو سياسية، ولم يلتفت إلى الجانب المفاهيمي الفعال الذي نعتمده في وضع الحلول الصائبة لقضية الشعر الإسلامي وتبيان الموقف الحقيقي للإسلام من الشعر، الذي هو نفسه يفصح عن موقف الإسلام من الفن والجمال عموما. فالتقسيم الأول اعتمد التوسع العسكري للدولة الإسلامية من جهة الفتوح ومدى ضخامة الرقعة الجغرافية التي انتشرت فيها.ومن المؤكد انه لا توجد ضرورة تدعو إلى التطابق الشامل والتام بين ثوابت الدولة الإسلامية من حيث هي نظام حكم تتحدد ثوابته حسب مصالح الجهة الحاكمة، وبين ثوابت الإسلام من جهة كونه دينا سماويا كما تجلى زمن النبي محمد(ﷺ).

أما التقسيم الثاني فقد اعتمد محورا أساسيا تحدد بنوعية الجهات الحاكمة في فترتين متباينتين؛ الأولى توزعت بين عصر الرسالة المحمدية وحكم الخلفاء الراشدين، والثانية في حكم بني أمية بدءا من حكم معاوية وحتى سقوط الدولة الأموية.

وفي تحقيب آخر يعتمد العناصر الدينية والسياسية يلجا أحد الباحثين إلى تقسيم ما أطلق عليه (عصر صدر الإسلام) إلى مرحلتين متصلتين اتصالا وثيقا في نواحي الحياة المختلفة (هما العصر الديني والعصر السياسي)، عَبَرَ من أحدهما إلى الأخرى، مسايرا التطور الطبيعي للأحداث، خاضعا لسلطان الزمن حين ترك أثره في النفوس والأشياء. المرحلة الأولى يسودها الطابع الديني، الذي كان يلون مظاهر الحياة كلها في تلك الفترة بألوانه، ويشيع في كل شيء بها صبغته، فلا تزال في كل ناحية وكل

مجال أثارة منه ودليل عليه، وهي عصر البعثة النبوية وزمن الرسالة الإلهية، أيام الرسول(ﷺ) وخلفائه الراشدين من بعده. والمرحلة الأخرى تلك التي يبدأ فيها الطابع الديني أن تخف حدته، وتضعف سطوته، وتحول صبغته ليحل محله الطابع السياسي، الذي كان يسود الحياة في تلك الحقبة، ويبسط فوقها ظله، ويترك في كل شيء بها أثره، وهي عصر الدولة الأموية. وليس هناك حد فاصل يعزل أحد العصرين عن صاحبه، فانك لتلمح الصبغة السياسية تشيع في أواخر المرحلة الأولى من هذا العصر، منذ فتنة عثمان ومقتله، واللون الديني تتبدى ظلاله في المرحلة الأخرى منه[٢٢].

من المؤكد ان التطور الذي يعنيه هذا التقسيم هو تأثير من قبل المسلمين، ونحن نبحث عن التأثير الفعلي للإسلام (في صورته المحمدية الأصيلة وليس كما تبدى في صوره المتعددة التي ابتدعها المسلمون) في حركة الحياة والشعر خصوصا. ولا يخدمنا ما اسماه الباحث بالعصر الديني في منهجنا الذي نرتئيه لتوضيح حقيقة العلاقة بين الإسلام والشعر، وإنما مطلبنا هو العصر المحمدي بالذات كونه المضمار الوحيد الذي تجلى فيه الإسلام الإلهي الحقيقي وهو وحده ينفعنا في تبيان الفكر الجمالي الذي استنبت ذلك الشعر فضلا عن إمكانية اكتشاف أصول نظرية الجمال الإسلامية كما هي مستنبطة من منبعها الطاهر الأصيل بلا تحريف عامد، أو تأويل فاسد.

إن الذي نعنيه بالشعر الإسلامي في صدر الإسلام هو الشعر الذي نتج تحت تأثير أو وفقا لتوجهات موقف إسلامي بحت، تتجلى فيه المفاهيم والمبادىء الإسلامية الأصيلة كما هي من منبع الإسلام النقي، قبل أن تتناولها توجهات الإنسان وعوامل الزمان بالتأويل والتحريف والتوظيف. ففي كل عصر من العصور التي مر بها الإسلام والأمة الإسلامية كان ثمة محور أو موقف معين مهيمن (مذهبي أو إيديولوجي) يمتلك سلطة التأثير والتغيير والتلوين والتأويل، وأحيانا الوضع والتحريف.

وبذلك فان الموقف الحياتي العام بكافة تفرعاته ومنها الموقف الشعري لا بد أن يصدر في كل زمان ومكان عن موقف عقائدي محدد يستبطن في كيانه فهما فلسفيا للكون والنفس والحياة، إذ ((ما من نتاج أدبي إلا وينتمي إلى فلسفة معينة، ويستقي من فكرة محددة، ويعمل لغاية مأمولة تتوافق مع غايات هذه الفلسفة، وتسير على الطريق التي ترسمها المبادىء، حتى العبث، والتفاهات، والسقوط، والهروب، والضياع والشذوذ الجنسي، كل ذلك أصبح عقائد وفلسفات لزمر كثيرة من الناس الذين ظلوا الطريق))[٢٣].

وفي مرحلة متقدمة تتعالى على التقسيمات الزمانية و الجغرافية و السياسية وغيرها من التقسيمات، يذهب باحث آخر (هو الدكتور..) في محاولته لإيضاح المراد من (شعر الدعوة الإسلامية) بأنه لا يقصد به فقط ذلك الشعر الذي يدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته، وان كان معنى مراد؛ ولكنه ليس هو المقصود وحده، وإنما يضاف إليه كل ما يحمل عاطفة إسلامية خيرة، أو فكرة دينية نيرة تتصل بالإسلام اتصال

الفرع بالأصل وتفيض عنه فيضان الجدول من الينبوع[٢٤].

من المؤكد اننا لا نستطيع الجزم أن مرحلة إسلامية تتصل بالإسلام اتصال الفرع بالأصل سوى مرحلة البعثة النبوية إبان حكم الرسول محمد(ﷺ): ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾[٢٥]. ولا نختلف مع الباحث بان ((المراد من "شعر الدعوة الإسلامية" الشعر الإسلامي الملتزم)) [٢٦]. ولكن؛ كيف يتسنى لنا تحديد المفهوم الإسلامي للالتزام في الشعر؟!.

لقد عانى الإسلام من انحرافات كبيرة على مدى تاريخه أدت إلى اضمحلال دور المسلمين وضمور فاعليتهم في التاريخ البشري عما كانوا عليه في العصر المحمدي الأصيل. والالتزام مفهوم واسع فضفاض، فلكل إنسان قضية ينافح عنها ويعتقد بها ويلتزمها في خطاباته مهما كانت أنواع تلك الخطابات. ولكن مناط الأمر: بماذا نلتزم؟ وكيف نلتزم؟ وما الهدف من هذا الالتزام؟ونحن نزعم أن دراسة حقيقة الموقف الإسلامي من الشعر لا يمكن تلمسها متجسدة على الأرض وليس مجرد شعارات رنانة أو تنظيرات في عالم الخيال، إنما هي في عصر الولاية المحمدية كونها الحقبة التي تتصل، فعليا، بالنبع الإسلامي الحقيقي اتصال الفرع بالأصل وتفيض عنه فيضان الجدول من الينبوع.

منهج البحث:

بدءا سيتم عرض مجمل الآراء المتعلقة بحال الشعر في عصر صدر الإسلام، والأدلة التي سيقت لإثبات وتعليل تلك الآراء، إذ عمدنا إلى فرز الأدلة المصاغة لهذا الغرض إلى طائفتين. حيث لاحظنا أنها تتمحور في اتجاهين:

أولا: الاتجاه الخارجي، أو مناقشة المسالة من جهة الوقائع الخارجية المتعلقة بها (بالشعر).

ثانيا: الاتجاه الداخلي من جهة تعليل تلك الآراء فنيا أي ما يتصل بالعمل الشعري ذاته شكلا ومضمونا.

ستتم مناقشة تلك الآراء سواء الخارجية منها أم الداخلية، وتبيان مدى مصداقيتها وتأديتها الغرض الذي سيقت من اجله المتعلق بإثبات التوجهات الأساسية القائلة بضعف الشعر الإسلامي. حيث سنرى إن كانت تلك الآراء ستصمد أمام المحاكمة العقلية والنقد العلمي الدقيق والعميق. ثم سنعمد الى تحديد الصيغة النهائية التي سيتمخض عنها البحث لتوضح الصورة الحقيقية للشعر في عصر صدر الإسلام التي تستبطن، في ذات الوقت، موقف الإسلام ،الرباني المحمدي الأصيل، من الفن والجمال عامة والشعر خاصة.

إن هذا البحث يسعى للكشف عن ماهية قضية الشعر والإسلام ضمن إطار العصر المحمدي، أي عصر صدر الإسلام، وفيما إذا كانت مسالة ضعف الشعر آنذاك

حقيقة أم وهم...

أما من ناحية متعلقات هذا البحث، فان معظم المصادر في هذا الموضوع، إن لم تكن جميعها، تتحدث عن أسس عامة تحكم هذه القضية، وقد افادتنا في ضبط أركان التعليلات التي وضعت لتفسير هذه القضية من خلال استقرائنا لما جاء فيها من آراء سيتم عرضها في ثنايا البحث.

لقد نهضت الافكار الرئيسة في هذا البحث جراء عملية تأمل أجريناها في هذا الموضوع تعاضدها الرغبة الصادقة في كشف الحقيقة عن طريق توضيح ما التبس من أمورها بصيغة الحقيقة المطلقة وأصبح بتقادم الأيام والأزمان، حاله حال كثير من موروثاتنا، غير قابل للنقاش في مدى مصداقيته. وهنا لم نتقيد بطول الأجزاء والفقرات في هذا البحث، فلكل فقرة ما يناسبها من الكلام، والمهم التناسب الكلي في هيكلية البحث، وان تفاوتت أجزاؤه في مقاديرها وأحجامها. فليس بالضرورة أن تكون يد الإنسان، مثلا، بحجم ساقه، أو أن تكون أذنه بحجم كفه، لكن المهم أن يكون هناك تناسب وتناسق في الأجزاء لعرض الكلي بصيغة جمالية وفي نفس الوقت تؤدي ما أمل منها في أحسن وجه.

مسارات البحث:

نرى أن مناقشة ضعف الشعر في الإسلام تأخذ اتجاهين:

الأول: الاتجاه الخارجي؛ المتمثل في القول بضعف الشعر الإسلامي على ارض الواقع من ناحية الكم وليس النوع.

يقول أصحاب هذا الاتجاه (ويتصدرهم ابن سلام وابن خلدون) إن الشعر ضعف من حيث الكم على ارض الواقع ولم يكن له حضوره المطلوب.

وقد ساقوا لتبرير هذا الضعف عدة أسباب ظنوها عللا لذلك الأمر، أهمها:

١. انشغال العرب بالحرب والجهاد.

٢. موقف القرآن من الشعراء ومن الشعر .

٣. انبهار العرب أمام أسلوب القرآن.

ان هذا الاتجاه (الخارجي) يتعلق بالوقائع الخارجية التي تشمل الشاعر والبيئة وتأثيراتها ومستجداتها. أي موقف الشاعر ونوعية التأثيرات التي يتعرض لها واثر ذلك في الشعر من قبل ان يشرع الشاعر بنظم القصيدة، أي ليس متعلقا بضعف الشعر من الناحية الفنية، بل من حيث المنحى الخارجي العام، أي كوجود وتحقق خارجي من ناحية الكم والزخم والتأثير.

الثاني: الاتجاه الداخلي؛ ما علل به النقاد ضعف الشعر الإسلامي من حيث النوع (الناحية الفنية)..

في محاولة لتبرير ضعف الشعر الإسلامي فقد عمد أصحاب هذا الاتجاه

إلى استنباط عدة أسباب تعلل ذلك الضعف من حيث لغة الشعر وصوره الفنية.

وفي الأساس، إن الإقرار بضعف الشعر الإسلامي جاء من إحدى جهاته مقارنته بالشعر الجاهلي والقول بان الشعر الإسلامي لم يرق إلى جودة الشعر الجاهلي من الجهة الفنية، من صورة ومجاز وخيال وعاطفة ..... الخ. وسيتم مناقشة هذه الفرضية في الآتي من البحث.

وعند الإطلاع على ما كتب في هذا الموضوع، يمكننا حصر الأسباب أو العلل الموضوعة لتفسير ضعف الشعر الإسلامي في الأمور الآتية:

١. ضعف لغة الشعر مقارنة مع الشعر الجاهلي.
٢. إن مواضيع مثل الزهديات والربانيات والنبويات في حالة تناول الشعر لها فانه يسقط سقوطا ذريعا. وقد علل ذلك بسبب ابتذال معانيها بين الناس.
٣. المقولة المأثورة عن الأصمعي: بأن الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل في الخير لان وضعف[٢٧].

سنحاول مناقشة هذه الآراء في كلا الاتجاهين الخارجي والداخلي؛ أي دراسة الشعر من الخارج ومن الداخل في تلك الفترة الزمنية لنرى مدى مصداقية القول بضعف الشعر الإسلامي، ومدى مصداقية التعليلات التي قيلت لتبرير ذلك الضعف. وهل كان لتلك التعليلات أثرا فعليا في العملية الشعرية، أم إنها أطلقت جزافا بدون كبير تأمل لمجرد مسايرة الجو العام السائد. ومن ثم نتبين هل كان الضعف بسبب الإسلام. إن كان هناك ضعف، أم بسبب عوامل أخرى. أم إن الشعر كان في أفضل حالاته الملائمة لتلك الفترة الزمنية، وانه من غير المناسب مطالبة ذلك الجيل من الشعراء بان يأتوا بما نريده نحن متذوقو الشعر في العصور التي تلت عصرهم وما وصل إليه الشعر من مدارس واتجاهات (خصوصا عندنا نحن أبناء القرن الحادي والعشرين) أو أن نطالبهم بان يكونوا على مستوى الشعر الجاهلي (الفترة الزمنية المختلفة جذريا عن الفترة الإسلامية) وغيرها من الأمور التي سيتم التطرق إليها في ثنايا البحث كتفرعات جانبية للعملية الأساس المنوه عنها أعلاه.

دراسة الاتجاه الخارجي:

كما ذكرنا من قبل، نعني بالاتجاه الخارجي ما تعلق بالزخم الشعري من جهة القلة والكثرة والتأثير. هل كان الشعر مزدهرا كما كان في الجاهلية والعصور التي تلته، أم انه كان قليلا خاملا ليس له ثقل في الساحة؟...

استند الباحثون في تبرير القول بقلة الشعر في العصر المحمدي (صدر الاسلام) وبالتالي القول بضعف ذلك الشعر إلى ما نقل عن "ابن سلام" و"ابن خلدون" من أقوال تقرر وتبرر انشغال العرب عن الشعر وانصرافهم عن نظمه.

يقول "ابن سلام": ((فجاء الإسلام فتشاغلت عن الشعر العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت (العرب) عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام

وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب بالموت والقتل ،فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير))[٢٨].

ثم يأتي ابن خلدون ليقول في مقدمته: ((انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فاخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا. ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة. ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي(ﷺ) وأثاب عليه، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه))[٢٩].

بإجراء عملية مزاوجة بين هذين القولين يمكننا تأشير الأسباب الرئيسة التي ترددت في كتب الأدب والنقد واعتمدها الدارسون، كل في مجاله، لتقديم صورة مفترضة عن الواقع الشعري في عصر صدر الإسلام. إن هذه الأسباب هي المعتمدة في الساحة البحثية لدراسة الشعر الإسلامي، آنذاك، من الاتجاه الخارجي كما اصطلحنا عليه.

لقد اتفق الكاتبان (ابن سلام، وابن خلدون) على الأعمدة الرئيسة التي يقوم عليه ما ذهبا إليه من تفسير لانصراف العرب عن الشعر، فارتأيا أنها تمثلت، في المقام الأول، في انشغال العرب بالإسلام (الدين الجديد) والنبوة والوحي، وما رافق ظهور الإسلام من توترات سياسية واقتصادية وقيمية وقبلية وغيرها، ثم انشغالهم، في فترة لاحقة، بالحرب والجهاد. وهي أسباب تعمل عملها في الشعر الجاهلي اكبر مما في الشعر الحاضر بسبب من الطبيعة المؤسساتية للدولة الإسلامية الناشئة آنذاك ذات الاختلاف الجذري عن وضعية الدولة الحديثة التي لا بد أن تكون في تصور كثير من الباحثين فيعتمدونها في رسم صورة الشعر في عصر صدر الإسلام (العصر المحمدي)، وهو ما يحتاج إلى أصالة في الرؤية ودقة في النظر لوضع الأمور في نصابها الصحيح.

ثم تآزرَ مع هذين السببين ما أطلق عليه ابن خلدون اندهاش العرب بأسلوب القرآن ونَظْمه. أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى بروز حالتين أسهمتا بشكل فعال في إضعاف الشعر ضمن مفهوم الاتجاه الخارجي؛ هما:

أ. التهاء العرب عن الشعر: فاخرس العرب عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا.

ب. ثم يتآزر مع السبب الأول سببا آخر لا يقل عنه تأثيرا، وهو لا يتعلق بالتهاء العرب عن النظم وإنما انشغالهم عن رواية الشعر مما أسهم في إنتاج التصور الخاص بضعف الشعر من جهة المردود المادي للنصوص الواردة عن ذلك العصر وما تتوشح به من زخم من حيث القلة والكثرة. وهو سبب لا يمكن إدراك كنهه ومغزاه الواسع وتأثيره الكبير إلا إذا أُحذ في سياق القوانين التي تشتغل عليها (الشفاهية) التي كانت سائدة آنذاك بوصفها نهجا معرفيا وجماليا له بالغ الأثر في تحديد

مسارات الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام: نشوءا وإنشاء وانتشارا.

ثم تحدث بعد هذا الفتور والانبهار انعطافة مهمة أسهمت في إرجاع واقع الشعر العربي إلى نصابه. وهو ما يشير إليه كلا المؤلفين وان تفاوتت صيغهم التعبيرية، لكن يمكننا استشفاف جوهر واحد لهذين التعبيرين. وهي مرحلة تشي بعودة سمة التأمل في الأحداث والأخبار وتبلور حالة من النقد الثقافي لاستكناه حقيقة المتغيرات والاستبصار بالتأويلات الصحيحة لتلك الظواهر المربكة وكيف أسهمت في تراجع بعض القيم وهو تراجع مؤقت ما انفك بالرجوع إلى حالته الطبيعية بشكل تدريجي.

الحالة هذه نشأت بعد تحقق درجة من الاستقرار والهدوء ووضوح الرؤيا وترسخ أسس العقيدة الجديدة على مستوى الذات والمجتمع. وهي وضعية مغايرة برزت بعدما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار، مما يوحي باستقرار الأوضاع الخارجية السابقة التي أدت إلى انشغال العرب عن الشعر وروايته حيث أونس الرشد من الملة.

وفي الوقت نفسه، قام العرب بمراجعة بعض العوائق النفسية من جهة التهيب العقائدي والتحرج الديني من قول الشعر لاعتقادهم بتحريم الإسلام للشعر، أو أن ثمة موقف سلبي للرسول منه. لكن بعد حالة الاستقرار وما تمخض عنها من تأمل وتبصر، أدركوا خلاف ما كانوا يَرَوْن، فالوحي لم ينزل في تحريم الشعر وحظره فضلا عن سماع النبي له وإثابته عليه، فرجعوا إلى ديدنهم منه. وهو ما يمثل عودة قوانين الشفاهية للاشتغال حيث تبدت الآن بظهور نتائج الإخلال بأنظمتها. وهكذا ولدت حالة جديدة تمثلت في ضياع كثير من الشعر، ديوان العرب[*1] وسجلهم المعرفي والجمالي. حيث لم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وهلاك العرب بالموت والقتل مما تسبب بانقطاع كبير وخطير في سلسلة الرواية.

سنناقش فيما يأتي ما ذُكرَ آنفا مما أوحى به هذان القولان من أفكار سيقت لوصف حالة الشعر الإسلامي في صدر الإسلام (العصر المحمدي) وتعليل ضعف ذلك الشعر من جهة الاتجاه الخارجي.

أولا: انشغال العرب بالحرب والجهاد:

إن هذا السبب لا يصلح أن يكون، بأي حال، علة لضعف الشعر الإسلامي، ولا يمكن أن ينسب، بفعل هذا الأمر، إلى الإسلام أي تأثير في إضعاف الشعر في عصر صدر الإسلام، سواء من ناحية القلة أو الكثرة والزخم والتأثير أم من ناحية الجودة الفنية. ويمكننا ذكر عدة أدلة نراها كافية لإبطال مفعول هذا السبب (انشغال العرب في الجهاد) أو على الأقل انه لا يمثل تعليلا مقبولا لمسالة ضعف الشعر الإسلامي التي يقول بها من يقول.

والأسباب هي:

١. إن تـأثير الحـرب لا يخـتص بالإسـلام فحسـب، بـل يتعلـق بكـل نظـام أو مؤسسـة سياسية، أو علـى مستوى الدولـة قديما و حديثا. فـإذا كـان للحـروب التـي خاضـها الإسلام سببا بضعف الشعر وقلته وان الناس قد انصرفوا عنه، أي الشعر، فـي تلك الفترة، فان هذا لا يمثل تأثيرا خاصا للإسلام في الشعر، بل هو تـأثير عام يشترك فيـه الإسـلام ودولـة الشـرك والكفر وأنظمتهـا، فالـدول المشـركة أيضـا لهـا تأثيرهـا بحروبها على شعر أتباعها. وبما أننا نبحث عما اختص به الإسلام من تـأثير، فإننـا نعتبر هذا السبب مردودا ومنذ البدء.

٢. تؤكد الروايات امتلاء تلك الفترة الإسلامية بالشعر وبالشعراء، وان حركـة الشعر فيها كانت نشطة وقوية. فكتب الأدب والتاريخ تزخر بما نظم من أشعار فـي صـدر الإسلام، وهي أشعار كثيرة، نلقاها فـي كل مـا يصـادفنا من أحداث العصر، فليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر ويرافقه. ((واقرأ في كتب الأدب والتـاريخ مثل الأغـاني والطبـري وسيرة ابـن هشـام وكتـب الصـحابة مثـل الإصـابة والاسـتيعاب فستجد الشعر يسيل علـى كل لسـان، واقرأ فـي المفضـليات والأصـمعيات فسـتجد المفضل الضبي والأصمعي يحتفظان في كتابيهمـا بغير مطولـة للمخضـرمين، وقد عقد ابن قتيبة في الشعر والشعراء تراجم لكثيرين منهم، وسلك ابـن سـلام فـي كتابـه (طبقات فحول الشعراء) طائفة من مجـوديهم البـارعين. ومـن يرجـع إلـى كل هذه المصادر يستقر في نفسه أن الشعر ظل مزدهرا في صدر الإسلام، وليس صـحيحا انه توقف أو ضعف كما ظن ذلك ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين))[٣٠].

لذلك نرى أن قول ابن سلام بان العرب لهت عن الشعر وشغلت عنـه بالجهـاد ينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه. فقد أنتجت هذه المساحة الزمنية من تـاريخ الإسـلام والمسلمين زخمـا هـائلا مـن دوافـع القـول الشـعري المتسـيدة فـي ميـادين الشـعر آنـذاك،مما أدى إلـى اتسـام هـذا الفـن بالخصـوبة والازدهـار، فنمـى وترعـرع حتـى بلغـت ((النصـوص الشـعرية التـي صاحبت الأحداث ووصفتها، درجـة كبيـرة مـن الكثـرة والتنـوع، بحيـث تمـلا ديوانـا ضخما يصح أن نطلق عليـه (ديوان شـعر السيرة)... فـإذا أضـفنا إلـى هذا الـديوان الشعري ديوانين آخرين، أحدهما حصيلة الفتوحـات الإسـلامية مـن الشـعر والثـاني حصيلة الحروب الأهلية التي ثارت بين المسلمين حول (الخلافة) منـذ مقتـل عثمـان حتى قيام الدولة الأموية...))[٣١].

يتبين أن الإسلام، بفعل الجهاد والحرب، كان لـه تـأثير كبيـر فـي زيـادة حيويـة الشعر وفي جعله أكثر زخما..

٣. إن ابـن سـلام الـذي يقـول بـأثر الحـرب والجهـاد الإسـلاميين فـي قلـة الشـعر وضـعفه،نراه يقرر فـي موضـع آخـر، إن للحـرب الأثـر الكبيـر فـي تطـور الشـعر وحيويتـه لينفـي مـا قالـه مـن انشـغال المسـلمين بـالحرب؛ ((وبالطـائف شـعر لـيس

بالكثير، وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويغار عليهم والذي قلل شعر قريش في الجاهلية إنهم لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا وذاك الذي قلل الشعر في عمان....))[٣٢].

ان هذا القول عن ابن سلام يؤكد بان (الحرب والجهاد) كانا عاملين ايجابيين في نمو الشعر وتطوره وليسا سببا في إضعافه.

٤. إن ابن سلام هنا يخلط بين قلة الشعر الإسلامي الذي وصل إلينا وبين ضعف ذلك الشعر وقلته في ذلك الوقت. إذ كان من الأفضل أن يقول إن شعرا عربيا كثيرا ضاع من يد الزمن، لا أن يقول إن العرب لهت عن الشعر وشغلت عنه بالجهاد، فهو يقول إن العرب لم يدونوا الشعر في تلك الفترة بل اكتفوا بروايته، ومن شان الرواية إذا طال العهد بها أن لا تحتفظ بكثير من الشعر ويسقط منه غير قليل، أما القول بالتهاء العرب عن الشعر بفعل الجهاد والحرب فينقضه ما تحمله كتب الأدب والتاريخ من منظوماته الكثيرة ومن أسماء ناظميه.

والآن، ما حقيقة الموقف؟. إن تأثير الحرب في إضعاف الشعر إنما يمكن أن ينطبق على غير المسلمين الحقيقيين. على الذين يزجون في حروب لا إيمان لهم بها فيخوضونها بلا اعتقاد أو يقين راسخ بما يفعلون، فينعدم عندهم صدق التجربة وعمق العاطفة، وبالتالي يكون همهم الأكبر الرغبة في الكسب أو الرياء أو تجنبا لأذى أو مجاملة للمتسلطين.

لكن الحرب تعتبر عاملا ايجابيا في رفع مستوى الشعر في تلك الفترة، إذ كان الشاعر المسلم مؤمنا بما يقدم عليه ولا يقول الشعر طمعا في كسب أو تخلصا من أذى، فلم يكن هناك إجبار في ذلك، وإنما إرضاء لدينه وعقيدته، ولاعتقاده بصدق وأحقية ما يدافع عنه، لذلك نجد عمق التجربة وصدق العاطفة متوافرين لدى الشاعر المسلم الحقيقي. وهو مما له الأثر الأكبر في السمو بالشعر إلى مستويات عالية من الجودة والرفعة.

وعليه فقد ثبت بالدليل أن الحرب والجهاد الإسلاميين لم يصرفا العرب المسلمين عن الشعر ولم يسهما في إضعاف ذلك الشعر، بل على العكس من ذلك، هما عاملان من العوامل التي تسهم في رفع مستوى الشعر الإسلامي بالذات وليس أي شعر آخر.

ثانيا: موقف القرآن من الشعر:

احد التعاليل التي أطلقها النقاد حول سبب ضعف الشعر الإسلامي هو موقف القرآن من الشعر والشعراء. من جهة ما في القرآن الكريم من ذم للشعر والشعراء في بعض آياته التي تطرقت لهذا الموضوع. وهو ما أدى إلى ابتعاد المسلمين عن هذا الفن وتجنبهم الخوض فيه مما تسبب في إضعافه.

إن هذه الفكرة قد استند قائلوها إلى بعض آيات القرآن الكريم التي تطرقت إلى

هذا الموضوع، وبالأخص قوله تعالى:﴿ وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٣٣]. ومؤكدا ان هكذا فهم لايات القرآن لمما يتجافى وروحية هذا الكتاب وأصالة المنهج الرباني الكريم الذي يبين دفتيه، فضلا عن تعارضه والمنطق السليم وحكم العقل الطاهر الذي كرمه الله في أكثر من موضع.

إن هذا الانحراف الواضح في توجيه مسارات الموقف القرآني من الشعر حسب ما تمثل في هذه الآيات إنما هو ((فهم غير صحيح لمغزى هذه الآيات... وهو فهم يدل على أن هؤلاء الدارسين، من القدامى خاصة، كانوا يصدرون عن (تحرج ديني) في تحديد موقف القرآن من الشعر، أكثر من صدورهم عن نظر صحيح في آي القرآن الكريم ومعانيه))[٣٤]. ثم ان هذه القضية قد عرضتها طائفة من الباحثين بطريقة ملتوية بل منحرفة، فحملت حملتها الشهيرة الصريحة على بعض الآيات الكريمة التي تصدت للشعر والشعراء فأوَّلوها على غير وجهها الصحيح ورتبوا عليها نتائج تثير الجدل والاعتراض، حين زعما أن الإسلام وقف موقفا معاديا من الشعر والشعراء، وان الشعر أصابه جراء ذلك وهن وانحسار في العهد المذكور[٣٥]...

لكن واقع الحال، آنذاك، ينبئنا أن الإسلام كان قد أذكى جذوة الشعر الصادق عند الشعراء المسلمين. لان الإسلام ليس قولا فقط بل عقيدة تظهر بصيغة القول والفعل بلا فصل بين الاثنين. فالعقيدة، في الشرق الأوسط، كما ذهب كثير من الباحثين ((لم تكن مجرد تجربة داخلية، إنها قبل كل شيء، تأكيد عام وعلني للمعتقد، شكل من المشاركة أو الانحياز الاجتماعي والسياسي))[٣٦]

من المناسب الآن، إدراج الآيات القرآنية، مدار البحث، التي تعرضت لذكر الشعر والشعراء وهي:

١. ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾[٣٧].

٢. ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ [٣٨].

٣. ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [٣٩].

٤. ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۞ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾[٤٠].

٥. ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۞ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۞ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۞ إنه لقول رسول كريم ۞ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ۞ ولا بقول كاهن قليلا

ما تذكرون ۞ تنزيل من رب العالمين﴾[٤١].

٦. ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۞ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۞ يُلۡقُونَ السَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَاذِبُونَ ۞ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الۡغَاوُونَ ۞ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعۡدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعۡلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٤٢].

من المعلوم ان جميع هذه الآيات هي آيات مكية، نزلت في الفترة الحرجة من عمر الرسالة الإسلامية، التي ركز فيها التنزيل على الأمور الاعتقادية والغيبية كوحدانية الله تعالى، والنبوة والروح والموت والبعث والجنة والنار... الخ...

ثم إن المشركين ولغرض التشكيك برسالة الرسول محمد(ﷺ) وإبعاد الناس عنه وعن تصديقه، فقد زعموا بأنه شاعر وان ما أتى به الشعر، لذلك من هذا المنطلق نرى أن الآيات أعلاه تتركز حول أساس واحد هو رد افتراء المشركين بان الرسول شاعر، كي لا يكون هذا سبب لتفريغ الدعوة من مضمونها الواقعي الحقيقي. ولكي لا يتصور البعض أن ما جاء به محمد(ﷺ) مجرد خيالات وإلهامات شاعرية أشبه بما يحدث للشعراء عن طريق شياطينهم كما كان متعارفا آنذاك[*١]، هذا فضلا عن تأدية تلك الآيات وظيفة أخرى هي مهاجمة الشعراء من الكفار الذين سلكوا طريق الباطل بتحريفهم الحق وإفسادهم عقول الناس وكذلك زرع الثقة في نفوس الشعراء المسلمين بأنهم من الذين انتصروا بعد ما ظلموا.

ومن وجهة نظر الإسلام فان الشعر قول، والقول فيه الخبيث والطيب. فقد اثر عن رسول اله(ﷺ) في هذا الخصوص قوله[٤٣]: ((إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق فهو حسن وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه))، وقال كذلك: ((إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وطيب)).

فأما ما كان من الشعر من صنف القول الخبيث،فان القرآن أو الإسلام يستنكر الخبيث من القول، أي الشعر المناوىء للحق والعدالة الذي يجري مع الأهواء لتحقيق الغايات الدنيئة المفروضة من قبل الأنانية والظلم والطمع.

وبخلاف ذلك، فانه يوجد، كما يذهب السيد "محمد الصدر"، إجماع كامل قطعي على جواز مطلق الشعر ما لم يكن مضمونه باطلا، وعلى رجحان الشعر الحق ومطلوبيته للدين. فالشعر الحق مصداق وتطبيق حقيقي لكثير من القواعد الشرعية الواضحة: كالعمل في سبيل الله، وحتى الجهاد في سبيله. وكذلك إقامة شعائر الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والهداية إلى دين الله، وتعليم الجاهل وإثارة عاطفة الخامل تجاه ما يرضي الله سبحانه وتعالى.ومن المعلوم ان كل تلك القواعد لا

يفرق في تطبيقها الكلام نثرا أم شعرا، بل الشعر في كثير من الأحيان يكون ابلغ وارسخ، ومن ثم يكون أوضح في انطباقه ومصداقيته لتلك القواعد.

فضلا عن ذلك، فانه يمكن الاستدلال لرجحان الشعر الحق، بحكم العقل العملي، الذي عرفوه في علم المنطق بأنه: إدراك ما ينبغي أن يعمل، فان هذا العقل يحكم بحسنه ورجحانه لا محالة. فإذا ضممنا إلى ذلك القاعدة القائلة: بان ما حكم به العقل حكم به الشرع، ثبت رجحانه الشرعي أيضا[٤٤].

يمكننا التأكد من موقف القران من الشعر والشعراء من خلال ملاحظة موقف الرسول(ﷺ) من تلك القضية باعتباره التطبيق العملي الحقيقي للرسالة الإسلامية. فالنبي لم يقف ضد الشعر ان كان من طيب القول وصادقه، فقد سمع النبي(ﷺ) الشعر في مسجده، وعلى منبره، وقال لحسان ((اجب عني، اللهم ايده بروح القدس))[٤٥].فهو كان يهتم بالشعر ويبدي إعجابه به ويقول فيه ((ان من الشعر لحكمة))[٤٦]. وكان يحض شعراء المسلمين على نظم الشعر ويكافئهم على ذلك.

لقد تواترت الإثباتات والعلامات الدالة على موقف الرسول من الشعر من جهة سماعه له واستحسانه إياه. ولم نعد بحاجة إلى تخريج الأحاديث المتعلقة بهذا الأمر أو تأويل الروايات المصورة لحقيقة موقف الرسول من هذه القضية.

جاء كعب بن زهير مستأمنا تائبا وانشده قصيدته المعروفة (بانت سعاد)، فلم ينكر عليه النبي(ﷺ) بل تجاوز عنه، ووهب له بردته[٤٧].

ومما يؤكد موقف الإسلام الايجابي من الشعر والشعراء ((انه كلما اعتنق شاعر من شعراء المشركين الإسلام وارتبط بحركة الدعوة أو على الأقل انسلخ عن جاهليته وامتنع عن إعاقة الدين، لقي ترحابا من المسلمين واعتبر من أنصار الإسلام))[٤٨].وكان الخلفاء يرددونه (أي الشعر) دائما على ألسنتهم كما كان الصحابة كثيرا ما يتناشدونه في المسجد[٤٩].

إلا إن هذا الموقف الذي قررته الأديان (والشعراء يتبعهم الغاوون....) موقف مرن، متطور وجلي، ليس موقفا جامدا خاصا بفئة بذاتها من الشعراء هم شعراء المشركين واليهود والنصارى في عصر النبي(ﷺ)، بل هو ينطبق على كل الشعراء الذين يخالفون قيم الدين ويعارضون مبادئه وقوانينه كما انه يصدق على الشعر الذي يناهض العقيدة ويطعن في أسسها[٥٠].

وهكذا لم يعترض الإسلام طريق الشعر بأجمعه بل الشعر المجانب للحق والقابع مع الباطل،بل إن الإسلام كان يدعو إلى نظم الشعر والمنافحة عن الدين وذم المشركين ((وعلى أية حال فنحن واجدون في الإسلام قد غذى الشعر في ناحيته الالتزامية وجعله أداة من أدوات الدعوة في التعريض للخصوم...))[٥١].ولولا ما في الشعر من النفع والنصرة لما استثنى الله تعالى المؤمنين من الشعراء، ولا جعلهم ممن انتصروا لرسول الله(ﷺ) ممن ظلمه وآذاه بهجائه، ولما سماهم منتصرين بالشعر

فقال: ((وانتصروا من بعد ما ظلموا))[٥٢].

والآن، ما حقيقة الموقف؟... يقينا إن المسلمين، والشعراء منهم على وجه الخصوص، لم يتأثروا سلبا بموقف القران من الشعر والشعراء، لان موقف القران لم يكن، في الأصل، سلبيا. فضلا عن، أن المسلمين، آنذاك، لم تستحوذ عليهم تلك الضبابية والتعمية اللتان سيطرتا وتسيطران على العديد من الباحثين القدامى والمحدثين، حتى يظنوا، أي المسلمون، ما ظنه أولئك وهؤلاء من عدم تشجيع القرآن للشعر والشعراء وبالتالي يحجمون عن ميدان الشعر ويصيبهم الوهن والضعف؛ بل كان المسلمون يعيشون في رحاب الايمان وبينهم رسول الله(ﷺ) يوضح لهم كل صغيرة وكبيرة في الدين، علاوة على أنهم أهل البلاغة والفصاحة ويعلمون ما تعنيه تلك الآيات، ولم يكونوا بحاجة إلى من سيأتي بعدهم بقرون، من نقاد، ليوضح لهم معاني تلك الآيات ومن إنها ضد الشعر والشعراء.

إن المسلمين يعتقدون أن الشعر كأي نشاط آخر، في الحياة، فيه النجدين، وما على الإنسان إلا أن يكسب رضا الله تعالى بسلوك النجد القويم المقرب من رب العزة، وان كره الكافرون، هذا فضلا عن معرفة المسلمين آنذاك لما للشعر من قوة في الميدان فكان سلاحا يستخدموه ضد المشركين من أعدائهم ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[٥٣].

نستنتج أن موقف القران من الشعر والشعراء لم يكن سببا في ضعف الشعر الإسلامي حسب ما ذكره المعللون لذلك الضعف الذي اعتقدوه، بل إن موقف القران من الشعر والشعراء والمترجم من قبل الرسول(ﷺ) كان حافزا لرفعة الشعر وإيجابيته وليس عاملا لتخلفه...

ثالثا: انبهار العرب أمام أسلوب القران:

إن هذا السبب المساق من قبل ذويه ليكون إحدى الركائز المستند عليها في تفسير ضعف الشعر الإسلامي نرى انه قد وضع في غير موضعه، وليس له أي تأثير في تفسير تلك الظاهرة كما يدعي أصحابها.

فإننا بصدد ضعف الشعر في الإسلام، أي تأثير الإسلام في ضعف الشعر، ومن البديهي أننا نقصد تأثير الإسلام في مجاله؛ أي في البيئة المسلمة آنذاك، وليس على العرب جميعا. فمعظمهم لم يعتنقوا الإسلام بعد (أي في ذلك الوقت)، فهم مازالوا على ما ورثوه من الجاهلية ولهم عالمهم الخاص، ولكن مجال البحث هو عند الشعراء المسلمين. والمسلم اعرف بما جاء به القران ورسالة الرسول محمد(ﷺ).

يعلم المسلم أن القران منزل من الله سبحانه وتعالى، وهو، أي المسلم، يعلم كذلك أن الله على كل شيء قدير ويقول للشيء كن فيكون ولا حدود لقدرته سبحانه،

وليس لأحد أن يجاري الله تعالى في قدرته، والكل عبيد في حضرته. إذن لا مجال للمسلم أن يقارن قدرته بقدرة الله، هذا عن قناعة واعتقاد صادق لديه.

ومن المؤكد والمُسَلَّم به أن ينبهر المسلم أمام أسلوب القران كما انبهر أمام حقائق الله وآياته جميعا. لكن ليس معنى هذا أن يشل ذلك المسلم عن الفعل والقول بحجة عدم قدرته على الإتيان بما يضاهي ما أتى الله به، فهذا لا وجود له في شرع الإسلام والمسلمين.

وعليه فلا مجال للقول بان أسلوب القران قد شل الشعر والشعراء من قبيل انبهارهم بأسلوبه، فان المسلم يعلم أن لكل أسلوبه ولكل قدرته ومجاله، فان علم المسلم بان الله قد بنى سبع سموات وبنى الجبال العظيمة والأرض والمجرات والشمس والقمر ...الخ. نقول إن ذلك العلم لا يمنع المسلم من بناء البيوت الصغيرة أمام عظمة بناء الله تعالى بحجة أنها لا شيء أمام بناء الله وعظمته، وهكذا بالنسبة للشعر، بل كان أسلوب القران خير معين للشاعر في تطوير أسلوبه، إذ جعل الشاعر المسلم من أسلوب القران غاية يحاول الاستضاءة بأنوارها لإدراك قمة الأداء الأسلوبي الموافق للحق من منطلق ما جاء به القران... .

النتيجة من دراسة الاتجاه الخارجي:

نلاحظ أن الأسباب التي سيقت لتفسير ضعف الشعر الإسلامي، من حيث قلته معدم أو ضآلة تأثيره، لم تكن أسبابا حقيقية تقنع العقل بضعف ذلك الشعر، وإنها لم تكن اسبابا كافية لا من قريب ولا من بعيد.بل على العكس كانت حافزا لتقوية الشعر الإسلامي من خلال تشجيع القران للشعراء المسلمين،وأنهم سيثابون على عملهم خيرا، وكذلك ما يقره الواقع من أن الحروب تذكي جذوة الشعر، وما اشرنا إليه من استفادة الشعراء المسلمين من أسلوب القران الكريم في رفع قدراتهم الأدائية وتطويرها. إذن من الممكن الآن وضع تلك الأسباب في خانة الإسلام واعتبارها من العوامل التي ساعدت، منطقيا، في تنشيط الشعر الاسلامي وليس في إضعافه...

إن ما صاغه المنظرون لتأكيد ضعف الشعر في الإسلام، أصبح يصب في مصلحة تأكيد قوة الشعر الإسلامي، وان الشعر في ذلك العصر لم يكن له إلا أن ينمو ويقوى بفعل تأثير الإسلام عليه....

دراسة الاتجاه الداخلي:

نعني بهذا الاتجاه ضعف الشعر من الداخل، أي ضعف الشعر من الناحية الفنية لغة وصورا وخيالا وعاطفة...إلخ. وقد كانت هناك عدة أسباب، ذكرناها من قبل، استند إليها القائلون بضعف الشعر الإسلامي فنيا لتعليل رأيهم ذلك.

سنقوم بمناقشة الأسباب الرئيسة في هذا المجال لنرى مدى مصداقيتها وفاعليتها في تفسير تلك الظاهرة، ظاهرة ضعف الشعر الإسلامي،على افتراض

وجود ذلك الضعف.

أولا: ضعف لغة الشعر الإسلامي مقارنة مع الشعر الجاهلي:

هنا يتم اتخاذ الشعر الجاهلي نموذجا ومعيارا للجودة يقاس عليه الشعر الإسلامي. ووفق هذا المنطلق، فان الشعر الإسلامي بإمكانه إثبات وجوده وجودته بمقدار اقترابه من الشعر الجاهلي، وعكس ذلك، أي في حالة الابتعاد، سيكون الشعر الإسلامي في خانة الضعف والتراجع.

إن هذا التعليل يتهيكل على أمرين مهمين:

الأول: اعتبار الشعر الجاهلي نموذجا وانه في أعلى درجات الجودة.

الثاني: مصداقية مبدأ المقارنة.

أما بالنسبة لنموذجية الشعر الجاهلي: فهذا ما لم يبت به معظم الباحثين[٥٤]. إذ اعتبروا الشعر الجاهلي، في فترة قبل الإسلام، حلقة في سلم تطور ذلك الشعر، ولا يستبعد وجود حلقات أكثر تطورا سبقت تلك المرحلة الجاهلية المتخذة نموذجا يقاس بموجبها جودة الشعر الإسلامي.

إن تصير الشعر الجاهلي كنتاج حضارة معينة ونظرة خاصة للحياة وما يرافقها من فلسفة جمالية للفن وما ينتج عن كل ذلك من مفهوم خاص للشعر متأصل في أذهان شعراء ومتلقي العصر الجاهلي، أي هذا النظام العام الذي تميزت به الجاهلية وما يعنيه من فهم للشعر وجوهره، وما يترتب من قوانين يصدر بموجبها ذلك الشعر؛ نقول إن هذا النظام وهذا المفهوم لم يكونا ليصلا هذه الدرجة إلا بعد المرور بفترات عديدة قطعها الإنسان الجاهلي حتى وصل إلى الذروة الفنية في عصر قبل الإسلام. إن صحت تلك الجودة والذروة الفنية.

وعلى هذا، فليس من الجائز مقارنة ذلك الشعر مع الشعر الإسلامي الفتي الذي لم تترسخ قواعده بعد، نقول ذلك مجازا مسايرة لمبدأ المقارنة. ثم لماذا نبخس الشعر الإسلامي حقه في التدرج والمرور بالمراحل المطلوبة زمنيا وفنيا لتختمر مفاهيمه وتتصلب أسسه وتنضج شخصيته المتميزة، كما هو الحاصل مع الشعر الجاهلي.

ثم إن هناك شيئا شديد الأهمية يتعلق بجوهر المسالة، وهي مسألة النموذجية الشعرية؛ فالمفترض بالنموذجية الشعرية أن تصدر أو تنطلق عن نظام فكري نموذجي متكامل، على الأقل من الجهة المنهجية وليس الصحة، في النظرة إلى الكون والحياة بتفرعاتها كافة مع وجود الرؤية المفسرة لمظاهر ذلك الكون، أي أن تصدر كل جزئيات ذلك النظام وفق المنظار العلمي الصحيح، وبالتالي يمكن توقع نموذجية ما يصدر عن ذلك النظام.

ثم ان النظام الجاهلي كان مبتسرا مترهلا قاصرا في نظرته للكون والحياة يتكيء على الخرافات والأساطير وعبادة الأوثان وأعمال النهب والقتل والوأد... إلخ.

فهل من الممكن عزل الشعر كنشاط حياتي عن النشاطات الأخرى وإعطائه صفة النموذجية مع عدم توفر هذه الصفة في أي ميدان آخر من ميادين الحياة الجاهلية. ثم لماذا نبخس التطور حقه، ونرفض أن يكون للآخرين مناهجهم في شعرهم وفنهم. إن ما كان نموذجيا لعصر ما لا يصلح، قطعا، نموذجا لعصر آخر يختلف جذريا في أصوله ومرتكزاته ونظرته للكون والحياة.

ثانيا: مبدأ المقارنة بين الشعر الجاهلي (على افتراض نموذجيته) والشعر الإسلامي:

تذكر الروايات أن أصحاب الإمام علي(عليه السلام) كانوا في ليلة يتذاكرون الشعر، فاحتدم النقاش حول أي الشعراء أفضل، والاختلاف كان حول مجموعة من الشعراء يمثلون عصور مختلفة، بينهم الجاهلي والإسلامي، وبفترات زمنية متباينة، وأغراض مختلفة. وحينما سئل الإمام علي حول أي أولئك الشعراء أفضل،جاء جوابه متضمنا حكما متزنا أصيلا، بعيدا عن العصبية و التحامل، لان أحكام الإمام إنما تصدر عن نفس عارفة عالمة؛ فهو لا يحكم ثم ينقض حكمه ثانية لأنه لا يحتاج إلى ذلك، حيث يتعارض هذا مع منهج الحكمة والفضيلة الذي اتخذه نبراسا في نفسه وسيرته وآرائه.

بعد ان تعصب أصحاب الإمام كل لشاعره المفضل، ما كان من الإمام إلا أن نطق بهذه العبارة التي تعتبر أساسا من أسس الموازنة والمقايسة والمقارنة في الأدب، وعليها، كما يذهب بعض الباحثين،بنى الجرجاني الوساطة وانشأ الآمدي كتاب الموازنة بين الطائيين[٥٥].

لقد قال الإمام عبارته الخالدة: ((كل شعرائكم محسن. ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا أيهم اسبق إلى ذلك، وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه، وان يكن احد فضّلهم فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس بن حجر فانه كان أصحهم بادرة وأجودهم نادرة))[٥٦]. فلو كانوا (أي الشعراء) أبناء (زمان واحد) و(مكان واحد) وقالوا في (غرض واحد) لصحت المقارنة ولكان بالإمكان القول أيهما أفضل...

لقد حوى النص السابق الحقائق الآتية:

١. كل شاعر له شيء من أدبه يجيد فيه فقد يجيد في فن أو موضوع أو قصيدة أو بيت.
٢. المفاضلة لا تقوم بين شاعر وشاعر ما دام العامل الزمني قد اختلف بينهما.
٣. المفاضلة لا تقوم بينهما ما دام الموضوع الذي عالجاه لم يكن واحدا.
٤. الإجادة تتاح حين تتوفر الحرية التي لا يعيقها الخوف ولا يقف في سبيلها الطمع، وأجود نموذج لهؤلاء الشعراء هو امرؤ القيس[٥٧].

إن هذه الرواية تشير إلى استحالة المقارنة بين شاعرين من جيلين مختلفين، فكيف يمكن المقارنة بين شعرين مختلفين يمثلان عصرين وجيلين ونظامين في فهم الحياة يختلفان ويفترقان في كل شيء تقريبا، الفرق بين الإسلام والجاهلية، ((إذ من

غير المستساغ بتاتا مقارنة العطاء الشعري في مرحلتين تاريخيتين تختلفان جوهريا من حيث الطبيعة والخصائص وحتى من حيث المفهوم الشعري))[٥٨].

لقد فرض المفهوم الإسلامي للشعر تفسيرا جديدا ومغايرا للشعر، علاوة على تبدل مضامين دلك الشعر وتغيره كنظام فرعي ينبثق عن نظام كوني شامل. كل ذلك جعل الأساليب القديمة لا تستطيع مواكبة الجديد والتعبير عما يريده، فهذا "لبيد" قد كف عن قول الشعر بعد إسلامه ((لأن سليقته الفنية أو فطرته هدته إلى أن سبل الأداء القديمة لم تعد تقوى على النهوض بالأفكار الجديدة... ولم يكن من اليسير أن تتغير مفاهيم الشعر وقيمه بين عشية وضحاها، فهذه المفاهيم قد رافقت الشعر قرونا طويلة...))[٥٩].

إن هذا المبدأ الذي استند إليه المنظرون لتعليل ضعف الشعر الإسلامي، وهو مبدأ المقارنة مع الشعر الجاهلي كنموذج، نرى انه لا ينفع في تبرير ذلك الضعف (إن كان موجودا) لان نموذجية الشعر الجاهلي مشكوك بها أصلا، أو إنها نموذجية تقع ضمن إطار ذلك العصر ولا يجوز الإخضاع القسري لباقي التجارب الشعرية لها. فضلا عن عدم أحقية مبدأ المقارنة بين الشعرين الجاهلي والإسلامي من جهة الحكم على جودة الشعر الإسلامي.

تأسيسا على ما سبق: لا نرى في المقارنة هذه سببا كافيا لإلصاق سمة الضعف بالشعر الإسلامي في صدر الإسلام. لان هكذا مبدأ لا يمتلك من المصداقية الواقعية ما يمنحه القدرة على الثبات أمام النقد العلمي الدقيق، وبالتالي لا يمكن اعتبار ذلك السبب تعليلا منطقيا ومقنعا لضعف الشعر الإسلامي في العصر المحمدي....

ثالثا: إن مواضيع مثل الزهديات والربانيات والنبويات في حالة تناول الشعر لها فانه يسقط سقوطا ذريعا:

وقد علل ذلك بسبب ابتذال معانيها بين الناس. لكننا نجد أن مواضيع مثل الخمر وكثير من الغزل والهجاء والمديح الذي يزور الحقائق والتاريخ مبتذلة أيضا لدى الناس، بل هي الابتذال إلى درجة السقوط. وهكذا نلاحظ أن بعض تعاريف الشعر تحاول تبسيط مفهوم الشعر بما يتلاءم والتصورات الحديثة للشعر بوصفه نوعا أدبيا ينتمي إلى جنس الفن، فنراها تعرفه ضمنا من خلال تعريفها للفن عموما، بأنه الكشف عن الحقيقة من خلال تعريف التجربة جماليا[٦٠]، أو انه التعبير الموحي عن تجربة شعورية[٦١]، كما في ثنايا تعريفاتها الخاصة للأدب.

لقد كان الشاعر الإسلامي، آنذاك، يملك حقيقة وله تجربة مع تلك الحقيقة فسعى عن طريق الشعر إلى الكشف عن تلك الحقيقة ونقلها للناس من خلال تعريف تجربته من خلال عملية استبطان لمفاصلها الدقيقة وعلاقاتها مع الخارج.

لقد كان ثمة تأثير كبير على تشكيل الشعر الإسلامي وكيفية تعامل الشعر الإسلامي مع تجربته في ذلك الوقت (سواء من جهة الإدراك أو التوصيل)، ناجم عن

الضغط الفعال الذي كان يمارسه، بدرجات متقاربة، كل من ذوق المتلقي الإسلامي ونوعية المواضيع أو الطرح الذي يتلاءم وشروط البيئة الإسلامية حينها، سواء منها الشروط الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية...الخ. طالما أن الفن الحقيقي، والشعر خصوصا، هو منهج للإدراك والتوصيل في آن واحد.

نلاحظ أن التعاريف الحقيقية للشعر لم تشترط في جودة الشعر جودة الموضوع لان الأساس يرجع إلى أدوات الشاعر وإمكانية فهمه للشعر، ووظيفة الشعر. فمن التعاريف الحديثة الناتجة عن استبطان حقيقة الشعر وحقيقة العملية الشعرية، ما يرى أن الشعر هو نوع من الترويض الذي يمارسه الشاعر على تجربته لجعلها تلج بسهولة ويسر في ثنايا عالمه الجمالي المفترض أن تكون مواد البناء الذي يقوم عليها هذا العالم، في جزء كبير منها، هي مادة تلك التجربة نفسها. أو ان الشعر، في تعبير موجز، هو ((اسر الشيء أو الموضوع في قفص الشكل))[٦٢].

فمغزى القضية يكمن في الشكل وقدرته على احتواء الموضوع، وليكن الموضوع ما يكن. هذا تشيخوف يقول لأحد أصدقائه وقد كانت هنالك نفاضة سجائر على الطاولة بأنه قادر على عمل قصة موضوعها هذه النفاضة. فلا يوجد حاجز مهما كان عظيما، كما يذهب وليم بليك، بإمكانه منع الإنسان المتأمل عموما والشاعر الفنان بشكل خاص، من أن يرى العالم في ذرة رمل، والله في الزهرة البرية[٦٣].

نخلص إلى أنه ليس هناك شيء عديم الأهمية في الكون، وان كل ما يقبل التعليل، وان كان قليل الحجم تافها في أفق النظرة التسطيحية والنفعية للأشياء، فهو جميل ويمتلك في ذاته مبررات وجوده وعظمته. فالموضوع أو الشيء مهما كان مبتذلا أو صغيرا فانه يصلح للشعر العظيم (فنيا) وهو مدار النقاش حول ضعف الشعر الإسلامي من الناحية الفنية.

نرى أن مواضيع الزهد والربانيات والنبويات من المواضيع العظيمة فضلا عن أنها مواضيع قابلة للصوغ شعريا ولم تكن هي السبب في ضعف الشعر. ومما يؤيد هذه النظرة شعر التصوف الإسلامي الذي لا يعنى إلا بتلك المواضيع والجميع يعرف النماذج الكبيرة من ذلك الشعر.

إذن هل تصلح مقولة الزهديات والربانيات والنبويات لتعليل ضعف الشعر في الإسلام، إن افترضنا ضعفه؟.. لا نعتقد ذلك.

رابعا: مقولة الأصمعي: إن الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في الخير لانَ وضعف:

ينقل المرزباني في موشحه عن الأصمعي قوله: ((طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لانَ، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان "علا" في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي(ﷺ) وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم - لانَ شعره، وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل أمريء القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحل، والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء

ووصف الخمر والخيل والحروب والافتخار، فإذا أدخلته في باب الخير لان))[٦٤].

إن اعتماد لفظة الخير هنا، في هذا السياق، بوصفها علة مباشرة في إضعاف الشعر والابتعاد به عن شعر الفحول إنما تدل على غياب النظرة الشمولية، وبساطة الفكر الجمالي وفقر الوعي الشعري الذي انطلقت منه، وإنها ناجمة عن تسرع وعجلة وقلة تأمل ودراية. وقد يخامرنا الشك في صحة نسيتها إلى الأصمعي، أو إنها قد أُخرجَت من سياقها الأصلي وأقحمت عنوة في هذا المضمار توخيا لغايات ومنافع وقتية.

فمن المعلوم إن الخير من الأمور النسبية وفقا للمقاييس البشرية، وما كان خيرا للمسلمين فهو شر لأعدائهم. إذن المسلمون (الشعراء) قالوا في الشر بالنسبة لأعدائهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لو افترضنا أن القائل بالخير يقصد به انه خير من جهة القائل به (أي الشاعر هنا). حسنا، إن المواضيع التي نظم بها الشعراء المسلمون هي مواضيع الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت، وتمثلت بالأساس في مدح ونصرة الرسول، أي الإسلام، وفي هجو الأعداء وشعر الحرب والحماسة والفضيلة ونشر المفاهيم الجديدة والتأكيد على الصفات النبيلة التي جاء بها الإسلام وذم ما يتعارض مع ذلك.

قد يتبادر إلى الذهن، لأول وهلة، من لفظة الخير تلك، الدعة والسكينة والاطمئنان والبلادة والسكون والرتابة وما شاكل من مفاهيم لكن في واقع الحال كان المسلمون يعيشون الحرب والموت وتناثر الأشلاء ونزف الدماء والقلق والهجرة والمظلومية والاستضعاف والخوف من الغد والترقب والجوع والعوز ومفارقة الأموال والأهل والأولاد والديار والتيه في الصحراء، ثم مسالة الالتزام بالدين وتأدية فروضه وما تتطلبه من جهاد ومجاهدة للنفس (الجهاد الأكبر)، وتعفف وصبر وذلة وحلم وفطام للنفس الأمارة بالسوء وسهر وبكاء وخشوع وتوبة وترك الملذات وحرمان النفس من مشتهياتها، كل ذلك ويبقى الإنسان المسلم يتقلب في فراشه يتململ تململ السليم خوفا من الله تعالى وان لا تقبل أعماله وان يكون مأواه النار والعذاب الأبدي.

فالمسلم متيقن من عجزه عن تأدية حق الله تعالى ولم يقدره حق قدره، وواثق انه لا يمكن أن يدخل الجنة بعمله لأنه حقير وبسيط أمام عظمة الله ونعمه، وانه لا ينال ذلك، أي دخول الجنة، إلا برحمة من الله تعالى.

إذن؛ هكذا حياة مليئة بكل ما تم ذكره أعلاه في كل لحظاتها وفي كل تفاصيلها هل هي خير كما يفهم من تلك اللفظة المتعجلة المساقة في ذلك القول المعلل لضعف الشعر الإسلامي فنيا، أم إن واقع حال المسلمين ينبئنا بشيء مغاير من خلال ما يزخر به من حركة وتغير ونشاط وتطلعات وصراعات...الخ.

هذا ما قال به المسلمون في شعرهم. إذن؛ هل تلك الكلمة (لفظة الخير كما جاءت في مقولة الأصمعي) تعد تبريرا لضعف الشعر في الإسلام؟...لا نعتقد ذلك...

النتيجة من دراسة الاتجاه الداخلي:

عنينا في دراسة الاتجاه الداخلي، مناقشة الأسباب التي كان القول بضعف الشعر الإسلامي سببا ونتيجة لها في الوقت نفسه. وقد لاحظنا أن لا مصداقية لتلك الأسباب في تفسير الظاهرة، وأنها لم تصلح علا لها على أية حال، وليس ضعف الشعر (إن وجد) سببا أو نتيجة لتلك الأسباب.

لقد كان القول بضعف الشعر الإسلامي استنادا إلى مبدأ المقارنة بالشعر الجاهلي لا يمتلك الصلاحية العلمية ولا الأهلية لذلك الافتراض.وان مسالة دخول الشعر في الخير، وان بابه الشر، ومسالة المواضيع التي يتناولها الشعر، إن تلك المسائل ليس لها اثر على العملية الشعرية من حيث الجوهر.

وفي الوقت نفسه، إن تلك الأسباب التي سيقت لتبرير وترسيخ مسالة ضعف الشعر الإسلامي من الممكن أن تكون، وهي كذلك، سببا لترسيخ خصوصية الشعر الإسلامي، وتميزه كمدرسة قائمة بذاتها، وتبين لنا أن كل تلك الأسباب ليست إلا من نسج الخيال بفعل عدم مطابقتها للواقع، فهي تبقى كالغشاوة من الممكن أن تنقشع تحت إلحاح التأمل المركز الصافي ((فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى))[٦٥]، أي إنها خيال في خيال، وما كانت لتصمد أمام المستعيذين بالله من شر النفاثات في العقد.

وبالنتيجة فان مسالة ضعف الشعر الإسلامي فنيا من الممكن إن لا يكون لها اصل في الواقع بحيث لم تفلح تلك المحاولات في تفسيرها فضلا عن تعليلها لأنها، أصلا، غير موجودة.

نتيجة البحث:

إن الأسباب والتعليلات التي وضعها النقاد والباحثين لتبرير ضعف الشعر الإسلامي لم تفلح في تفسير ذلك الضعف. فقد رأينا ان ما ذكرناه من أسباب سواء في الاتجاه الخارجي أو الداخلي، لم تكن، حقيقة، عللا مناسبة لذلك الضعف. وهذا بدوره يفضي بنا إلى نتيجة حتمية مفادها؛ إما أن يكون الضعف ليس له وجود على ارض الواقع، ولذلك لم يكن من المنتظر لتلك التعليلات أن تفلح في تفسير شيء هو من نسج الأوهام، أو ان الضعف موجود ولكن يراد له علل أخر لتفسيره.

ولكن ما دام كل النقاد وعلى مدى التاريخ لم يستطيعوا أن يبتكروا إلا تلك الأسباب والعلل لتبرير ضعف الشعر الإسلامي،فمن المستبعد أن يكون باستطاعتهم الإتيان بعلل أخرى تصمد أمام التحليل وتنجح في تبرير ذلك الضعف، وعلى ذلك فان الكفة تميل إلى مصلحة قوة الشعر الإسلامي وانه لم يكن هناك ضعفا في ذلك الشعر، فان الأدلة النقلية والعقلية تؤكد قوة الشعر الإسلامي وترفض ضعفه.

أما بخصوص ما قيل حول ضعف شعر حسان بن ثابت بعد اعتناقه الإسلام،

ومن أن شعره كان قويا قبل الإسلام (القول الخاص بالأصمعي) فقد أثبتت الأدلة زيف هذا القول وعدم استناده إلى أسباب تصمد أمام شمس الحقيقة وما يخبر به الواقع...

فحسان كان شاعر الرسول(ﷺ) وشعره ينبض حيوية وجمالا، وكان سيفا صارما بيد الإسلام والمسلمين بوجه أعدائهم. وتذكر الروايات أن وقع شعره والشعراء المسلمين الآخرين اشد من وقع النبل على الكافرين، قال رسول الله(ﷺ) مخاطبا حسانا: ((اهجهم، كأنك تنضحهم بالنبل)) [٦٦].

هذه حقيقة الحال في ذلك الوقت، أما أن يأتي ناقد أو باحث بعد ذلك بعقود أو بقرون، ثم يطلق آراء جزافا مستندا إلى أقوال مبتورة مبتسرة أو نتيجة لعدم الربط الدقيق بين خيوط الأحداث من المؤكد ستتولد لديه نظرية أحادية الجانب لا تصمد أمام التاريخ وأمام الحقيقة. فالأصمعي استند في كلامه إلى ما وصله من شعر يخص حسان، وهذا الشعر كما اثبت الباحثون فيه الكثير من الانتحال وان قصائد كاملة قد وضعت على لسان حسان بن ثابت من قبل آخرين (إما لينسبوا إلى أنفسهم مكرمة أو لدفع شبهة أو مثلمة لحقت بهم في السير التاريخي للإحداث والمواقف التي رافقت البعثة النبوية) لمكانته عند الرسول وان لوقع كلامه أثرا اكبر من وقع كلام الشعراء الآخرين.

وهو ما يؤكده ابن سلام أثناء تطرقه لشعر حسان في معرض حديثه عن شعراء القرى العربية وكيف انه فضله على الآخرين من أبناء طبقته؛ يقول: ((أشعرهم حسان بن ثابت. وهو كثير الشعر جيده، وقد حمل عليه ما لم يحمل على احد. لما تعاضهت[*١] قريش وانبت، وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تنفى))[٦٧]. فجاء في شعره، نتيجة لذلك الوضع، الهابط والمتدني الذي لا يرتقي إلى شعر حسان الحقيقي المشهود له بالجودة...

لكننا واستنادا إلى منهجنا في هذا البحث، لا نحاول، فقط، الاتكاء على الروايات في تفنيد القول بضعف شعر حسان، وبالتالي ضعف الشعر إذا دخل في الخير، وان كانت تلك الروايات صحيحة، ففي ذلك تملص مما الزمنا به أنفسنا، أو مما أعلنا اعتقادنا به، وبالتالي يفترض أن هذا الاعتقاد ناجم عن نظرة خاصة تتسم بالعلمية والشمول، وأنها قادرة على تفسير جميع جزئيات الموضوع الداخل في نطاقها.

ومن هذا المنطلق فان النقاد قد أعلنوا ضعف الشعر (شعر حسان) من كوى وزوايا للرؤيا قد كونوها هم أنفسهم في عصورهم واستنادا إلى ما تتأسس عليه تلك العصور من مرتكزات خاصة وفهم للحياة يستند إلى فلسفة ينطلق منها تفسير كل المفاصل، وكذلك تحديد معاني الأشياء والمفاهيم، ومن ضمنها الشعر. فلكل عصر مفهومه الخاص للشعر لأنه لا يخرج عن الاتجاه العام لذلك العصر والأسس الإيديولوجية الذي قد تبرعم عليها، وارتوى من لبنها.

وعلينا، لكي نثبت ضعف أو عدم ضعف شعر حسان (وبالتالي الشعر

الإسلامي)، أن ننظر، على اقل تقدير، من الزاوية التي كان ينظر منها الشاعر الإسلامي، آنذاك، للشعر. وما معنى الجودة والقوة التي يضعها ومن ثم ننظر إن كان قد حقق الشيء الذي يتحدد وفق ذلك المنظار، وهل عرض رؤية صحيحة للحياة، ومعالجة جيدة للتجارب التي مر بها، هو ومجتمعه، من منطلق نظرته تلك، هذا هو الأساس...

وقد يتسنى لنا التساؤل، تأسيسا على بحثنا هذا، ان كان ثمة أسس أو شروط تحدد ماهية الشعر المتكامل المثال، أو،كتوقع أقل، ماهية الشعر الملائم لمرحلة زمنية معينة لها شروطها الخاصة. وحينها، على اقل تقدير، باستطاعتنا القول إن الشعر الإسلامي، في عصر صدر الإسلام، كان متناغما وشروط تلك المرحلة، وان ذلك الشعر كان قويا وعالي الجودة بالنسبة إلى ذلك العصر، وانه، أي الشعر، حقق أغراضه المطلوبة وفق ما كان يتحدد به من أسباب وشروط، وانه كان كما يجب له أن يوجد.

ويكاد يمكننا القول، مع شيء من التسامح، بأنه لم يكن بالإمكان، (في مستوى الإنجاز الشعري،آنذاك، تبعا للظروف الحاكمة في عصر صدر الإسلام (العصر المحمدي) وحاكمية الرسول الأكرم)، أفضل مما كان...

هوامش البحث:

(١) دراسات في النقد الأدبي ـ د.أحمد كمال زكي ـ دار الأندلس، بيروت ـ ط٢، ١٩٨٠: ص ١٨٩ .
(٢) قضايا الشعر في النقد العربي ـ د.إبراهيم عبد الرحمن محمد ـ دار العودة، بيروت ـ ط٢ ،١٩٨١: ص ١٧٥ .
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ص ١٧٥ .
(٤) الشعراء /٢٢٤ ـ ٢٢٦.
(٥) الحديث في مسند أحمد بن حنبل ٣٣١/٢، وصحيح مسلم ١٧٦٩/٤. وينظر: العمدة: ٣١/١ ـ ٣٢ .
(٦) ينظر: الموشح للمرزباني: تحقيق: علي محمد اليحاوي ـ دار نهضة مصر، القاهرة ـ ١٩٦٥،د.ط : ص٨٥.
(٧) ينظر: في النص الإسلامي والأموي، دراسة تحليلية ـ أعدها:د.محمد بن علي الهرفي، د.عبد الرزاق حسين، د.نبيل المحيش ـ مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة ـ دار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع، الأحساء ـ ط١، ١٩٨٩: ص ١١.
(٨) ينظر: قضايا الشعر في النقد العربي: ص ص ١٧٤ـ ١٧٥.
(٩) الموشح : ص ٨٥.
(١٠) ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري- د. إحسان عباس ـ دار الثقافة،بيروت،لبنان ـ ط٢، ١٩٧٨ :ص٣٧.
(١١) ينظر: شوقي شعره الإسلامي ـ د. ماهر حسن فهمي ـ دار المعارف، مصر ـ ط١، ١٩٥٩ :ص١٤.
(١٢) قصة الأدب في العالم- تصنيف: احمد أمين وزكي نجيب محمود- ج١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨: ص ١٢،١١ .
(١٣) ينظر: أصول النقد الأدبي- أحمد الشايب- مطبعة الفاروقية، القاهرة- ١٩٤٠، د.ط: ص ص ٧٢- ٨١ .
(١٤) ينظر: الإسلام والأدب: ص ص ١٦، ٢٠ .
(١٥) ينظر: معالم التربية- فاخر عاقل- دار العلم للملايين، بيروت، لبنان- ١٩٦٤: ص ٤٣.
(١٦) رذاذ الحقائق والأحداق (ديوان شعر) ـ شعر: محمد سعيد الأمجد ـ المكتبة الأدبية المختصة(١٥)، قم،إيران ـ ط١٤٢٢هـ ق:مقدمة الديوان/ ص ١٠.
(١٧) المصدر نفسه: ص ٧.

(١٨) ملامح تربوية في الشعر الجاهلي والإسلامي : ص٦.
(١٩) رذاذ الحقائق والأحداق:مقدمة الديوان/ ص ص ٧- ٨.
(٢٠) ينظر: تاريخ الادب العربي - احمد حسن الزيات - ط٢٦،د.ت:ص٥.
(٢١) في النص الإسلامي والأموي(دراسة تحليلية): ص٥.
(٢٢) الخطابة في صدر الإسلام/ الجزء الأول/ العصر الديني - عصر البعثة النبوية- د.محمد طاهر درويش- دار المعارف بمصر- ١٩٦٥، د.ط: ص د من المقدمة.
(٢٣) في الأدب الإسلامي المعاصر،دراسة وتطبيق- محمد حسن بريغش- مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء- ط١، ١٩٨٥م: ص٢٨.
(٢٤) ينظر: شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين - جمعه وحققه ووثقه وشرح غريبه وترجم لأعلامه ووضع فهارسه:عبد الله بن حامد الحامد، باشراف:د.عبد الرحمن رأفت الباشا - مؤسسة الرسالة - د.ط، د.ت:ص٢١.
(٢٥) النجم/٣ - ٥.
(٢٦) شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين: ص ٢١.
(٢٧) ينظر: الموشح - المرزباني - تحقيق:علي محمد اليحاوي - دار نهضة مصر، القاهرة - ١٩٦٥، د.ط: ص٨٥.
(٢٨) طبقات فحول الشعراء - محمد بن سلام الجمحي - تحقيق:محمد محمود شاكر - السفر الاول، مطبعة المدني، القاهرة - د.ط، د.ت:ص٢٥.
(٢٩) مقدمة ابن خلدون (مطبعة المطبعة البهية):ص ٤٢٧.
(*١) ينسب ابن رشيق الى عبد الله بن عباس خبرا يتضمن هذه النصيحة: ((إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب، فان الشعر ديوان العرب)). (العمدة: مج١/ص٣٠).
(٣٠) العصر الاسلامي (تاريخ الادب العربي/ ج ٢) - د. شوقي ضيف - مؤسسة ذوي القربى، قم، ايران - ط٢، ١٤٢٧هـ :ص ص ٤٢ ت ٤٣.
(٣١) قضايا الشعر في النقد العربي:ص ٢٠٤.
(٣٢) طبقات فحول الشعراء،السفر الاول، باب شعراء الطائف: ص٢٥٩.
(٣٣) سورة الشعراء/ الايات ٢٢٤ - ٢٢٧.
(٣٤) قضايا الشعر في النقد العربي:ص١٧٧.
(٣٥) قضية الاسلام والشعر - ادريس الناقوري - مشروع النشر المشترك: دار الشؤون الثقافية العامة(آفاق عربية)، بغداد - دار النشر المغربية - ط٢، ١٩٨٦، بغداد: ص٧.
(٣٦) الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية - إحسان سركيس - دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت - ط١، ١٩٨١: ص ٢١.
(٣٧) يس/٦٩.
(٣٨) الأنبياء/ ٥.
(٣٩) الصافات/٣٦.
(٤٠) الطور/٣٠.
(٤١) الحاقة/٤٠ - ٤٣.
(٤٢) الشعراء/ ٢٢١ - ٢٢٧.
(*١) لقد امن العرب قديما، حسبما تروي الأساطير، بالهوبر شيطانا يلقن الشعر الجيد، وبالهوجل شيطانا يلقن الشعر الرديء. ((ينظر: الفن والأدب؛ بحث في الجماليات والأنواع الأدبية - ميشال عاصي - دار الأندلس، لبنان - ط١، ١٩٦٣: ص٥٧)).
(٤٣) ينظر: العمدة: ٢٧/١.
(٤٤) ينظر: ما وراء الفقه/ج١٠ - السيد محمد الصدر - مطبعة القضاء، النجف الاشرف - ط١، ١٩٩٦ : ص ص ١٤٦ - ١٤٧.
(٤٥) مسند أحمد، عن حسان بن ثابت. الحديث ٧٣٢٤.
(٤٦) مسند ابن ماجة، عن ابي بن كعب. الحديث ٣٧٤٥.
(٤٧) ينظر: طبقات فحول الشعراء/السفر الأول: ص ص ٩٩ - ١٠٣
(٤٨) قضية الإسلام والشعر: ص ص ٤٩ - ٥٠.

(٤٩) ينظر: الأدب الإسلامي: ص ٤٥.
(٥٠) ينظر: قضية الإسلام والشعر: ص ٥٠.
(٥١) الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية: ص ٥٩.
(٥٢) ينظر: قضايا الشعر في النقد العربي: ص ١٨١.
(٥٣) الأنفال/٦٠.
(٥٤) ينظر: د، داود سلوم، في الشاعر الإسلامي تحت سلطة الخلافة. إدريس الناقوري، في قضية الإسلام والشعر. إحسان سركيس، في الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية.
(٥٥) ينظر:الشاعر الإسلامي تحت سلطة الخلافة ـ د. داوُد سلوم ـ عالم الكتب، بيروت ـ ط٢، ١٩٨٥:ص٥٥.
(٥٦) الأغاني: ج١٦ / ص٢٩٧.
(٥٧) ينظر: الشاعر الإسلامي تحت سلطة الخلافة: ص ٥٦.
(٥٨) قضية الإسلام والشعر:ص٤٧.
(٥٩) الظاهرة الادبية في صدر الإسلام والدولة الأموية: ص٨١.
(٦٠) ينظر: إشكالية الإبداع والمعرفة الجمالية، دراسة في فلسفة الفن والجمال ـ حامد سرمك حسن ـ رسالة ماجستير غير مطبوعة ـ جامعة القادسية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية ـ ٢٠٠٢: ص .
(٦١) ينظر: العمل الأدبي ـ السيد حسين الشيرازي ـ بيروت ـ ١٩٨٠، د.ط:ص١١.
(٦٢) الشعر والتجربة ـ أرشيبالد مكليش ـ ترجمة: سلمى الجيوسي ـ مراجعة: توفيق صايغ ـ دار اليقظة العربية، بيروت ـ ١٩٦٣، د.ط: ص١٣١.
(٦٣) ينظر: الرمز والرمزية ـ د.محمد أبو الفتوح ـ دار المعارف، مصر ـ ط٢، ١٩٧٨:ص ٢٨.
(٦٤) الموشح: ص٨٥.
(٦٥) طه/٦٦.
(٦٦) طبقات فحول الشعراء: السفر الأول/ ص ٢١٧.
(*١) تعاضهت: تعاضهوا: تناهشوا ورمى بعضهم بعض بالعضيهة، وهي الافك والبهتان والشتيمة)).
(٦٧) ابن سلام:السفر الأول/ ص ٢١٥

قائمة المصادر والمراجع

(١) الإسلام والأدب ـ د. محمود البستاني- المكتبة الأدبية المختصة، قم ، جمهورية إيران الإسلامية- ط١، ١٤٢٢هـ. ق.
(٢) إشكالية الإبداع والمعرفة الجمالية،دراسة في فلسفة الفن والجمال ـ حامد سرمك حسن ـ رسالة ماجستير غير مطبوعة- جامعة القادسية، كلية الآداب ـ ٢٠٠٢.
(٣) أصول النقد الأدبي- أحمد الشايب- مطبعة الفاروقية، القاهرة- ١٩٤٠، د.ط.
(٤) الأغاني: ج١٦ / ص٢٩٧.
(٥) تاريخ الأدب العربي ـ احمد حسن الزيات ـ ط٢٦،د.ت.
(٦) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري- د. إحسان عباس ـ دار الثقافة،بيروت،لبنان ـ ط٢، ١٩٧٨.
(٧) الخطابة في صدر الإسلام/ الجزء الأول/ العصر الديني ـ عصر البعثة النبوية- د.محمد طاهر درويش- دار المعارف بمصر- ١٩٦٥، د.ط.
(٨) دراسات في النقد الأدبي ـ د.أحمد كمال زكي ـ دار الأندلس، بيروت ـ ط٢ ، ١٩٨٠.
(٩) رذاذ الحقائق والأحداق (ديوان شعر) ـ شعر: محمد سعيد الأمجد ـ المكتبة الأدبية المختصة(١٥)، قم،إيران ـ ط١،١٤٢٢هـ ق.
(١٠) الرمز والرمزية ـ د.محمد أبو الفتوح ـ دار المعارف، مصر ـ ط٢، ١٩٧٨.
(١١) الشاعر الإسلامي تحت سلطة الخلافة ـ د. داوُد سلوم ـ عالم الكتب، بيروت ـ ط٢، ١٩٨٥.

(١٢) شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ـ جمعه وحققه ووثقه وشرح غريبه وترجم لأعلامه ووضع فهارسه:عبد الله بن حامد الحامد ، بإشراف:د.عبد الرحمن رأفت الباشا ـ مؤسسة الرسالة ـ د.ط ، د.ت.
(١٣) الشعر والتجربة ـ أرشيبالد مكليش ـ ترجمة: سلمى الجيوسي ـ مراجعة: توفيق صايغ ـ دار اليقظة العربية، بيروت ـ ١٩٦٣، د.ط.
(١٤) شوقي شعره الاسلامي، تأليف د. ماهر حسن فهمي، دار المعارف بمصر،ط١، ١٩٥٩.
(١٥) طبقات فحول الشعراء ـ محمد بن سلام الجمحي ـ تحقيق:محمد محمود شاكر ـ السفر الأول، مطبعة المدني، القاهرة ـ د.ط ، د.ت.
(١٦) الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية ـ إحسان سركيس ـ دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ـ ط١، ١٩٨١.
(١٧) العصر الإسلامي (تاريخ الأدب العربي/ ج ٢) ـ د. شوقي ضيف ـ مؤسسة ذوي القربى، قم، إيران ـ ط٢، ١٤٢٧هـ.
(١٨) العمدة:٣١/١ ـ ٣٢ . والحديث في مسند أحمد بن حنبل ٣٣١/٢، وصحيح مسلم ١٧٦٩/٤.
(١٩) العمل الأدبي ـ السيد حسين الشيرازي ـ بيروت ـ ١٩٨٠، د.ط.
(٢٠) الفن والأدب؛ بحث في الجماليات والأنواع الأدبية ـ ميشال عاصي ـ دار الأندلس، لبنان ـ ط١، ١٩٦٣.
(٢١) في الأدب الإسلامي المعاصر،دراسة وتطبيق- محمد حسن بريغش- مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء- ط١، ١٩٨٥م.
(٢٢) في النص الإسلامي والأموي ، دراسة تحليلية ـ أعدها:د.محمد بن علي الهرفي، د.عبد الرزاق حسين، د.نبيل المحيش ـ مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة ـ دار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع، الأحساء ـ ط١، ١٩٨٩.
(٢٣) قصة الأدب في العالم- تصنيف: احمد أمين وزكي نجيب محمود- ج١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨.
(٢٤) قضايا الشعر في النقد العربي ـ د.إبراهيم عبد الرحمن محمد ـ دار العودة، بيروت ـ ط٢ ،١٩٨١.
(٢٥) قضية الإسلام والشعر ـ إدريس الناقوري ـ مشروع النشر المشترك: دار الشؤون الثقافية العامة(آفاق عربية) ، بغداد ـ دار النشر المغربية ـ ط٢، ١٩٨٦، بغداد.
(٢٦) ما وراء الفقه/ج١٠ ـ السيد محمد الصدر ـ مطبعة القضاء، النجف الأشرف ـ ط١، ١٩٩٦.
(٢٧) معالم التربية- فاخر عاقل- دار العلم للملايين، بيروت، لبنان- ١٩٦٤.
(٢٨) ملامح تربوية في الشعر الجاهلي والإسلامي ـ د.علي شواخ إسحاق الشعبي ـ دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ـ ط١، ١٩٨٦.
(٢٩) الموشح للمرزباني: تحقيق: علي محمد البجاوي ـ دار نهضة مصر، القاهرة ـ ١٩٦٥،د.ط.
(٣٠) مقدمة ابن خلدون (مطبعة المطبعة البهية):ص ٤٢٧.